مدينة الرياح

صدر له أيضا

- **الحب المستحيل**، رواية؛
- **موسوعة التراث الشفهي الموريتاني**

الجزء الأول: حكايات الحيوان؛

الجزء الثاني: حكايات الإنسان؛

الجزء الثالث: الأمثال والحكم؛

- **حج الفِجار**، رواية؛
- **التراث والخيال العلمي، دراسة؛**
- **قصتي**، سيرة ذاتية.

موسى ولد أبنو

مدينة الرياح

رواية

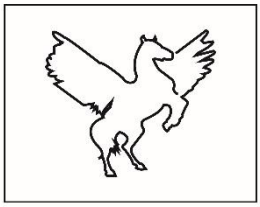

ديوان للنشر
نواكشوط

ISBN 979-10-97142-13-1

© موسى ولد أبنو 2018

فهرست

آڤْوَيْدِيزْ.. 9
الجزء الأول... 13
الذهب 15
مُوسَى اسْبَعْ... 29
الرشق 42
اللِّيِّنْ.. 58
الْبَرَّانِي 67
الجزء الثاني.. 81
الطبل 83
الأبكم 87
"أنْتْرَشْ" 98
التركة 108
محنة... 121
العتق... 134
الجزء الثالث 139
انْوَقَّلْ... 141
الماشي.. 145
النَّوْحُ.. 156
اتْزَخْرِيْف 164
لَبْرَازْ.. 175
بَيْقِ الْمُخَالَفْ... 187

آفْوَيْدِيرْ

دأب الباحثون من معهد آثار الفكر الإنساني على نبش القبور تنقيبا عن شواهد مطمورة من الحضارات السابقة. وفي هذه السنة، كانت الحفريات تجرى في الغلاّويه، بشمال المنكب البرزخي. استخرجت حتى الأن سبع عشرة جثة من عمق يتراوح بين سبعين، وثمانمائة سنتمتر. كانت كل الجثث في حالة سيئة، عظامها نخرة تتفتت وتنسحق عندما تهب الرياح وحين تلامسها الفرشاة.

لم يتبق لهذه الحملة سوى جثة واحدة على قمة الجبل. حفروا خمسة أمتار لكي يصلوا إلى القبر. تلقف أفضل الباحثين الجثة بتلهف، تدفعهم رغبتهم الجامحة في استكناه فكر هذا الكائن المنبعث من الماضي. إنه هنا مسجى في عزلة، مثله مثل تل صقلته عوامل التعرية، جمجمته مطوقة بتاج من الرمل البلّوري ذي اللون النضاري الفاتح. كشف فحص الجمجمة آثار مادة الميلين على هيئة بلورات صلبة. تحتوي بلورات

الميلين على نسخ جزئية تحدد سرعة وسعة وتردد الموجات اللاستقطابية المميزة لنشاط الخلايا العصبية، وتعبر عن زخم المشاعر المختلجة في النفس عند سكرة الموت... في مخبر المعهد، وضعت البلورات في محلول عالي التركيز من حامض الديزوكسي ريبوزي ثنائي التحلزن، ثم أخضعت للتحليل الفيزيائي-الكيميائي من أجل قراءة نسخها الجزئية. لقنت النسخ للحاسوب لفك أبجديتها وتحديد معانيها. في اللحظة الموالية بدأ النص يظهر على الشاشة:

...ب73س7886د8س54أب1902277بد01د19ءف78ب ءنم س.مدينةالرياح/010/غلاوية/ڤارا.نج.ف12345678910111213141516171 8... أنا في عالم جديد... تهاجمني ذكريات تافهة، غريبة، من الحياة التي تغادرني... وجاءت سكرة الموت بالحق... لم أعد في غفلة من شيء... بصري اليوم حديد... أضاءت سكرة الموت تلافيف حياتي التي ظهرت بصور مكبرة آلاف المرات، والزوايا المظلمة كأنما صوبت عليها آلاف الشموس الصحراوية الموتورة. انزاحت الحواجز بين الظاهر والباطن، البادي والخفي، المعلوم والمجهول، ذابت الصفات المميزة في صفة واحدة في بؤرة الضوء!!... بُحيرة وعيي، التي ليس لها قاع، انفلقت في جميع الاتجاهات، كأنما ارتطمت بكوكب ساقط من علو ملايين السنين الضوئية. الوعي يتم من خارج منطقة الوعي. إنني من منطقة ما بعد الحياة، وما قبل الموت من منطقة التخوم، أستعيد شريط حياتي.. أسمعه وأراه، أدركه بالتفاصيل. ليس فيه قبل ولا بعد... أنا الذي أفنيت حياتي أحاول، بلا جدوى، أن أربط حياتي بأحلامي وشعوري بلا شعوري، ووعيي بوعي الآخرين، لأصدر حكما على الأخرين وعلى ذاتي وعلى الزمن، وارتدت محاولاتي يائسة مخذولة!! ها أنذا أشاهد ما عجزت عنه طوال حياتي يتحقق من تلقاء نفسه ساعة موتي!! الآن، وبعدما خرجت من الميدان، أرى نتيجة المعركة الحاسمة بين حياتي

وأحلامي، مجسدة أمامي بدقة متناهية، كل شيء فيها يأخذ حجمه الصحيح، قبل أن تلتهمها بالوعة العدم. أرى العالم كله من عدسة ناظور، كله الآن بديهيات، لم تعد ثمة ألغاز ولا أسرار، كله على مستوى واحد من الوضوح. الزمن اختزل نفسه في بعد واحد، لم يعد ثمة ماض ولا مستقبل، أصبح حاضرا فحسب!! وشخصت البداية!!

الجزء الأول

برج السوداء

1
الذهب

كانت ليلة ليلاء.. رأيتني أتقلب على فراشي الحشيشي المبلل... أنصب شراكي للنوم، فيفر منها.. العرق يتصبب مني بغزارة.. تهاجمني جيوش البعوض من كل الجهات.. وكتائب الأفكار المرعبة تحاصرني بلا رحمة.. هواجس المجهول الرهيب تنهشني من كل جانب، فاغرة أفواهها، كسرب من الذئاب. كان الجو ثقيلا، حارا.. الرياح متوقفة تماما.. والهواء تحول إلى مادة لزجة. على مدى يومين، كنت أسمع دقات الطبول من بعيد، معلنة قدوم قافلة الملح.. كانت تخز طبلة أذني.. تحدث في دماغي إحساسا مشؤوما. أرى طلائع القافلة: العبيد مازالوا يضربون الطبول المثبتة بين أفخاذهم، على ظهور الجمال المحملة بصفائح الملح. أخذت الجمال تبرك تباعا.. تفك عنها الأحمال وهي ترغي متألمة من الدِّبَر الدامية التي أحدثتها الحبال الغائرة في ظهورها. صفوا أمتعتهم في وحدات منفصلة وتركوها في ساحة السوق، وراحوا يضعون قيودا

قصيرة في أيدي الجمال... أخذوا القدائم، وراحوا يقطعون الأشجار، يقيمون منها زريبة لإقامتهم على مسافة من ساحة السوق.. كانوا يستنشقون بنهم رطوبة الأجواء المطيرة، المشبعة بروائح الغابات، والمستنقعات، يطفئون بها نارا مضرمة في خياشيمهم...

ما إن خالطت وعيي أطياف نوم شرود، حتى أحسست يدا عنيفة تهزني.. وسمعت صوت أبي قريبا مني :

ـ قارا! قارا! استيقظ يا ولدي، أسرع، استيقظ، أسرع! نريد أن نتدارك الملح قبل أن ينفد!!

فتحت إحدى عيني بصعوبة.. كان الليل مازال مخيما على الكون.. لم أستطع أن أميز شخص أبي الذي مازال يهزني بعناد... جلست متثاقلا وأنا أدلك عيني المتكاسلتين. أحسست أبي يضع قدحا ثقيلا بين يدي:

ـ خذ! اشرب يا ولدي، سيكون القيظ شديدا اليوم!!

رفعت القدح إلى شفتي، وازدردت بسرعة جرعات من حامض اللبن الرائب.

ـ كيف سنحصل على الملح يا أبي ؟؟

ـ سترى!! سيكون الأمر سهلا! يكفي أن تطلب من أحدهم سلفة من الملح، على أن يكون القضاء مضاعفا من الذهب أو العبيد في الموسم القادم!

خرجنا من كوخنا متجهين نحو الشمال الغربي. كنا قد تجاوزنا منطقة الحقول عندما بدأت أشعة الشمس تكلل ذوائب أشجار السنط العنبري.. تتكاتف الأشجار المتوسطة والكبيرة، وتتعانق مع بعضها، ونبتة العلندى تتسلق ببراعة جذوع الأشجار الكبيرة، وتدور على أغصانها دورات

لولبية محكمة، وأحيانا تجمع إلى غصن من شجرة غصنا من شجرة أخرى. تنتظم زهور النباتات القصيرة المزدحمة وتتناسق في أطواق عجيبة ...

كانت الظلال قصيرة، مائلة إلى الغرب، عندما اقتربنا من سوق القافلة. صفائح الملح تسطع تحت أشعة الشمس ببريق يخطف الأبصار.. كان ثمة عشرة من العبيد المعروضين للمقايضة تحيط بهم دائرة من ربوات التبر، أتى بها أهل القرية لمقايضتها بالملح، كأنها ربوات التراب التي تقام في حواشي الأضاة. وكانت ثمة أقداح كبيرة ملأى بالحبوب، وأكوام من نسيج القماش الملون، وقطع من العاج وبعض الخيول. أمرني أبي أن أتقدم، وأنتظر تجار الملح. اجتاحتني هواجس الخوف أمام المجهول عندما وصلت ساحة السوق ووقفت مع العبيد. ظل الناس يأتون ببضائعهم.. يطرحونها وينصرفون. كان التعامل التجاري بين زَناتَة وسكان بلاد الذهب يتم بلا تخاطب: في وقت محدد يخرج التجار من زريبتهم إلى ساحة المقايضة، يتفحصون المعروضات.. ما يعجبهم يأخذونه إلى داخل الزريبة، ويتركون مكانه قدرا معلوما من الملح، وما لا يعجبهم يتركونه مكانه من غير مس، فيعلم صاحبه أنه غير مرغوب فيه، فيزيده أو يأتي بغيره.

عند منتصف النهار، خرج التجار من زريبتهم وفي أيديهم المناشير لتقطيع ألواح الملح. وقف إلى جانبي رجل طويل القامة نحاسي البشرة، ملامحه قاسية، كأنها منحوتة من مادة صلبة!! عيناه جمرتان دوارتان، وضعت كل منهما في قعر قدح عميق الغور. كان يرتدي صدرية، لم يعد ممكنا تمييز قماشها من شدة الاتساخ والتشمس، ويتمنطق

حزاما عريضا تحته سراويل واسعة الرجلين، تلامس الركبتين. أحسست عينيه تتفحصان جسدي من ذؤابة رأسي إلى أخمص قدمي.

- إن أبي، اقَّارَا مُولْ ، يطلب منكم أن تسلفوه شيئا من الملح، على أن يكون القضاء مضاعفا في الموسم القادم!

لم يجب الرجل.. ظننته أصم.. كررت ما قلته بصوت أعلى فلم يجب.. لكنه أخذ لوحا كبيرا من الملح ووضعه عند قدمي. فزعت !! إنهم عندما يشترون عبدا، يقيسون موطئ قدميه على صفيحة الملح، ويحزونه بالمنشار... يكون ذلك هو ثمن العبد!! أخذ بساقي اليسرى، ووضع قدمي بعنف على صفيحة الملح، ثم فعل كذلك بالساق اليمنى!! أخذ المنشار، وراح يقطع، متتبعا حافة قدمي على الصفيحة، كمن يقيس نعلا على قدم!! ثم قسم بقية الصفيحة إلى قطع صغيرة متساوية، وانحاز إلى ربوات التبر، يحوش إحداها في مخلاته، ويترك مكانها قطعة ملح. وضع المخلاة على منكبه، وسحبني من جناحي باتجاه الزريبة!! استطعت بصعوبة أن أتملص من يده القوية القابضة على جناحي، واختطفت قطعة من الملح، وأطلقت ساقي للريح في اتجاه أبي. أطلق الزناتي صيحة، خيل إلي أنها صاعقة من السماء.. تقاطر على إثرها رجال القافلة في إثري.. أحاطوا بي، ووضعوا في عنقي حبلا، وراحوا يجرونني باتجاه الزريبة! كلما اقترب مني أحدهم لسعني بلطمة حارة!! ألقوا بي في الزريبة ضمن ثلة العبيد المشتراة حديثا، وأنا مكتوف الرجلين واليدين، أتألم من أشياء كثيرة!!

أخذوا ينظمون الأمتعة ويصفونها في وحدات متماثلة، ويشدون كل وحدة على نفسها بحبال من الحلفاء شديدة الفتل، أو من ألياف لحاء السمر، ويتركون لها عرى مثناة. أغلب الأمتعة من الحبوب المعبأة في أجربة ضخمة، كل واحد منها بحجم البقرة. لقد باعت القافلة في هذا

الموسم معظم ملحها.. أحضروا الجمال. تحولت الزريبة إلى ساحة ملحمة: ضوضاء متواصلة، يختلط فيها رغاء الجمال، بتصايح الرجال، بالحركات السريعة، بالغبار المتصاعد. كان بينهم بضعة رجال سود يلبسون مثلهم ويتكلمون لغتهم، يساعدونهم في إعداد الأمتعة. وحدهم العبيد الجدد، الراسفون في القيود، يشاهدون ما يجري ولا يشاركون فيه. الجمال ليست متساوية.. منها الكبير، والصغير، وليس لها نفس الدرجة من الترويض، والخبرة، والوقار. بعضها هزيل، ظهره يشبه منوال الحائك، وبعضها ما زالت عليه بقية من سنام. الجمال الكبيرة لا تبالي.. تبرك من تلقاء نفسها في المكان المناسب تماما في محاذاة الأحمال المهيأة.. تجتر ما أسلفت من مخزونات الأعشاب وبراعم الأشجار، كأن الأمر لا يعنيها.. أما الصغيرة فهي أكثر انزعاجا وأكثر لجاجا.. ترغي بشكل متواصل، كأنها تستغيث بمجهول.. لا تبرك إلا بعد معركة عنيفة. يعقلونها من اليدين بحبل يمررونه من فوق عطفة العنق، فلا تقدر على النهوض بحال. أحد البعران تقيأ جرته على وجه رجل كان يحاول إناخته. ترى، لو أفلت هذا البعير، هل سيستطيعون اللحاق به والقبض عليه، كما حصل معي؟؟ رأيت دائرة صغيرة على غارب أحد الجمال، عارية من الشعر، فتذكرت صلعة أبي، المحفوفة من ثلاث جهات بالشعر الأبيض. هل تشيب الجمال من ظهورها؟ تسمرت عيناي على صلعة الجمل الذي يمضغ جرته على جانبي الفكين بالتناوب ورأيتني وقد أصبحت في يوم من الأيام جملا أصلع وقورا، بعد أن كنت بعيرا شرودا!!

كانوا يؤثرون الجمال الهزيلة بالرحال، يضعون اللبدة على الغارب، ويضعون الرحل فيمسك بالغارب كالكلابة. ويمدون الغرض من خلف الكركرة، كالحزام، ويشدونها إلى الجانب الأيسر من الرحل.. أما الثفر، "اذْنَابَه"، فيشد الرحل من جانبيه إلى جذر الذنب، كيلا ينكفئ إلى الأمام. ثم ينوطون خلف الرحال العياب الخفيفة، وبعض اللوازم. انتهوا

من شد الرحال، وأخذوا يضعون الأحمال الثقيلة على الجمال الكبيرة.. تبدأ العملية بنشر قطعة قماش على ظهر الجمل، وتوضع وسادتان متصلتان من طرفيهما على جانبي السنام، ترسو عليهما قاعدتا القتب الخشبيتان. وتشد الغرض كما في الرحل. ثم يشد القتب من الأمام بحبل يحيط بجذر رقبة الجمل على اللبة، ومن الخلف بحبل جلدي يشد القتب إلى جذر الذنب. وتهيأ الأعدال عن يمين الجمل وشماله. يرتفع عدلان في اللحظة نفسها وتشتبك عراهما في لمح البصر، بواسطة أعواد الخلال التي يمسكونها بأسنانهم لتكون قريبة المتناول. تعلق الجراب الصغيرة تحت الأعدال الكبيرة، كما تتبع نتاج الحيوانات أمهاتها.. وتعلق قرب الماء، فلا يكون أسفلها شيء. الجمل الذي انتهى تجهيزه، لا يتركونه باركا، يغمزونه للوقوف.. وعندما يهم بالنهوض، يخففون عنه الأثقال.. يضعون أكفهم تحت الأعدال.. يرفعونها إلى الأعلى.. وعندما ينهض بصدره، يمسكون الحمولة من أطرافها الخلفية يدفعونها إلى الأمام، كي لا ينقطع الدير، فتنفسخ الحمولة إلى مؤخرة الجمل. وعندما ترتفع مؤخرة الجمل إلى أعلى يدفعون الحمولة من أطرافها الأمامية إلى الخلف، كي لا ينقطع الثفر فتتدحرج الحمولة على رقبة الجمل. ينفذون هذه الحركات المتعاكسة بصورة آلية شديدة السرعة. وعندما يستوي الجمل واقفا، يقودونه بضع خطوات.. يفحصونه من الجانبين ومن الخلف.. كل شيء على ما يرام.. الأعدال متوازنة.. ربما اقتضى الأمر إرخاء الثغر قليلا، أو زيادة شد الغرض.. أو إضافة بعض العلائق الخفيفة على هذا العدل أو ذاك، أو نزعها ضمانا لدقة الموازنة. وينصرفون إلى جمل آخر...

وضعوا الحبال في أعناقنا، كما يضعون الزمام في خطام الجمل الكبير، أو في الأحناك السفلى للبعران الصغيرة.. ثم ربطوا كل واحد منا إلى مؤخرة جمل كهل. ركب الرجال المسنون الرحال وصفت الجمال – وبينها العبيد – كأنها سلسلة متصلة من أشجار الدوم الماحلة. كانت

خطواتي – وأنا أتبع الجمل الذي يقودني – ترتبك.. أتعثر، أسقط.. يجرني الجمل.. أحس الحشائش الشائكة، تخدشني على صدري، وبطني، وفخذي. سقطتي الأولى، كانت بسبب بول الجمل.. لم أكن أعرف أن الجمل يضخ بوله إلى الخلف. صفعت وجهي بشكل مفاجئ زخة قوية، مضغوطة بعنف.. كان لها في عيني حرقة شديدة.. أغمضت عيني اضطرارا، وحدت عن مسار الجمل.. اصطدمت بنتوء لا أدري ما هو، وسقطت. الجمل لا يبول كالثور أو الحمار.. بوله يستغرق ساعة كاملة، وهو مقسم على عدد لا يحصى من الزخات الصغيرة المنفصلة عن بعضها، تدفعها طاقة دفع قوية، كوتر السهم. وهذه الأسهم البولية الحادة مصوبة بعناية لا تخطئ لتمرق من بين الرجلين، وتسافر مسافة بعيدة !! تمنيت أن أجعل من ذنب الجمل متراسا يقيني الطلقات البولية.. لو كنت طليق اليدين لأمسكته على وضع ثابت بين الرجلين.. فذنب الجمل لا يستقر على حال.. وهو متحرك دائما ذات اليمين وذات الشمال.. ونظام الضخات البولية، المرسلة تباعا، مضبوط بدقة عجيبة على نظام حركة الذنب، بحيث تنفذ الطلقة المتقدمة عندما يكون الذنب إلى اليمين، وتنفذ التي تليها عندما يكون الذنب إلى اليسار... القافلة تصعد مرتفعات مخصرة معشوشبة، وتنحدر إلى منخفضات ووهاد تكسوها النباتات من كل نوع، وتمر في محاذاة أودية تتجافل منها الخنازير البرية، وقطط الخلاء، التي تشرئب بأعناقها محدقة في القافلة، حتى إذا داهمها الخطر، ابتلعتها الجحور كأنها لم تكن. كانت قمم الروابي تتلفع بمسوح حمراء من أشعة الشمس الأرجوانية، فيما كانت تلقي بظلالها الداكنة على السهول والمنخفضات، فيبتلعها الليل قبل الأوان.

أناخت القافلة جمالها على شاطئ أضاة محاطة بطوق من أشجار الدوم العملاقة.. بعضها ليس لها أغصان و لا أوراق.. إنما هي جذوع ضخمة، منتصبة في الهواء.. تكبر وتتسع كلما كانت أقرب إلى الأرض،

وترق وتنحف كلما استطالت إلى أعلى.. في جذوعها حفر كبيرة كالكهوف، يوجد فيها أحيانا ماء مطري أنقى من ماء الأضاة الملوثة بفضلات الدواب، وقد يوجد في أحد هذه الكهوف حائك ينصب داخلها أدوات النسيج، وربما استوطنتها خلية نحل.. لكن القافلة لم تجد لا ماء نقيا، ولا عسلا.. وجدت جثة آدمية نتنة، لم يمض عليها وقت طويل: من عادة القَنْفَارِيّين أن يدفنوا الموسيقيين، والسحرة، في "جروف" شجر الدوم! ما زلت مكتوفا.. جيوش البعوض النهمة التي تستوطن الأضاة تغطي جسمي بكثافة! لكن الإعياء خدرني. ومباشرة بعد تعريس القافلة، رحت في نوم عميق، عميق... رأيتني – في حلم مدهش – أنوش مذنبا في السماء... ايقظني سيدي برفسات متتالية.. لم أدرك كم مضى من الوقت وهو يرفسني.. كانوا قد أوقدوا نارا كبيرة وهم في حركة دائبة.. يتصايحون، يتنادون لرفع الأحمال على الجمال.

عند بزوغ الشمس، كانت القافلة تعبر مسيلا عريضا.. يبدو أنهم حسبوا للأمر حسابه.. لم يلبسوا سراويلهم هذا الصباح، كانت موضوعة على رؤوسهم.. استعاضوا عنها بأطراف الصدريات القصيرة المدلاة من الأمام والخلف. المياه تصل إلى أكتاف الرجال الطوال.. وتأخذ بحلاقيم القصار منهم.. الجمال تبدو بلا قوائم.. تبدو كالسلاحف الضخام، تحمل صغارها على ظهورها، تزحف بها على سطح الماء.. كان هناك أناس يعبرون المسيل في الاتجاه المعاكس، يحملون على رؤوسهم الجرار.

هبت رياح شرقية حارة، واشتدت الحرارة. كانت الجمال تطيل الالتفات، عندما تمر في محاذاة شجرة ظليلة.. وكانت قطرات من الصنان تنبع من الذفرى، راسمة خطوطا سوداء طويلة على صفحة عنق الجمل، كأنها خطوط الأرضة على جذوع الأشجار الميتة.. في الهاجرة، وفي

كنف دومة عملاقة، على مسافة متوسطة من إحدى القُرى، حطت القافلة، في انتظار القِرى.. لم تكمل القافلة الحط عن الجمال حتى أقبلت النساء يحملن على رؤوسهن القصعات الكبيرة الملأى باللبن الرائب، والحبوب، والدجاج الطبيخ، وطحين وردة النيل، والفاصوليا.. وكان الزناتيون يأخذون حاجتهم من هذه المعروضات، مقابل قطعات من الملح احتفظوا بها لتغطية تكاليف رحلة العودة. ثم جاء رجل شديد البياض، عيناه زرقاوان، تنبئان عن فضول شديد، تدوران بسرعة تشي بالحذر والتوجس.. كان مؤتزرا بثوب وسخ يغطي الثلث الأوسط من قامته البيضاء.. كان يتكلم لغة القرويين ويرافقه رجل أسود يترجم عنه لأهل القافلة.

ـ أريد الالتحاق بقافلتكم إلى أَوْدَاقُوسْتْ، لقد حدثني العارفون، أنه توجد بتلك المدينة جوار حسان الوجوه، بيض الألوان، ممشوقات القدود، لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف؛ المستمتع بالثيب منهن كالمستمتع ببكر!!

رحبوا به، ودعوه للجلوس. كان النصْرانِ صاحب شهية خارقة .. وكان مولعا بنشاء محلي يصنعونه من عساقيل بقلة تشبه القلقاس. كان يزدرد كل ما يقدم له من النشاء ويطلب المزيد. جميع مشتريات القافلة من النشاء ازدردها النصرانِ والعبيد!! لكنهم، بعد ساعة، أصيبوا بمغص شديد. كانوا يضعون أيديهم على بطونهم.. يتلوون.. تتقلص عضلات وجوهم. استدعى شيخ القافلة ساحر القرية، فسقاهم حساء من دقيق بعض البقول، مخلوطا بالسكر واليانسون، وبعض التعاويذ. عصفت بهم نوبات متتالية من القيء.. الواحد منهم يقيء كل ما شرب من النشاء، وكان آخر ما يقذفونه من بطونهم مادة صفراء لزجة. فشل الدواء في حمل أحد العبيد على القيء فمات متخوما.

ـ أسرعوا بالجنازة.. لقد حان الرحيل!!

غسلوا الميت.. لفوه في قماش أبيض.. صلوا عليه.. ثم حملوه إلى مقبرة غير بعيدة.

كنا قد جهزنا الجمال استعدادا للرحيل، عندما طلع علينا شيخ القرية يتبعه جيش من حملة السيوف والنبال. أحاطوا بالقافلة من جميع الجهات، كأنما يتوقعون فرارا. كان الشيخ في منتهى الغضب.. ترتجف شفتاه وتتقبض أسارير وجهه المجعد، يرفع سيفه إلى أعلى ويتوعد:

ـ ما الذي جرأكم، أيها اللقطاء، على هذه الفعلة المنكرة.. ما الذي حملكم على إهانة موتانا، والإساءة إليهم!؟

جحظت عيون الزَّنَاتِيِّين وأخذ منهم الرعب مأخذا عظيما.. راحت نظراتهم الفزعة تنتقل بين الشيخ الغضبان المتوعد والجند المسلحين المحيطين بنا، متوقعين أمرا قريبا من الشيخ للفتك بهم. تقدم تالوثان فقال:

ـ بأي وجه، يا حضرة الشيخ المحترم، تتهموننا بما لا يليق.. نحن قافلة تجار مسالمين، ضيوف عليكم، فكيف نسيء إليكم، أو نتعمد إهانة موتاكم؟؟

ـ أهذا جزاء الإحسان إليكم؟؟ بئسما تجازون به الإحسان!!

ـ عفوا، يا حضرة الشيخ المحترم! ألا يمكن أن تقولوا ماذا تنقمون منا ؟؟

ـ جريمتكم الشنعاء: أن تهينوا أرواح موتانا!!

ـ من أين لنا أن نهين أرواح الموتى.. بل كيف نستطيع ذلك؟؟

ـ ألم تدفنوا بينهم جثمان عبد؟

ـ وماذا في ذلك؟

ـ إنها جريمة أن يدفن العبد إلى جانب الحر، وإهانة للحر أن يدفن إلى جانبه العبد.. إن للعبيد حياتهم الخاصة، ولهم مقابرهم الخاصة كذلك!!

ـ أرجو يا حضرة الشيخ المحترم أن تفهموا عذرنا.. نحن لم نكن ندري بهذا الأمر.. الناس في بلادنا متساوون في الموت.. سننبش القبر حالا، ونحول الجنازة إلى مقبرة العبيد!!

ـ هذا لا يكفي! يجب أن تعطونا عبدا نقدمه قربانا، لاسترضاء أرواح موتانا وإطفاء غضبهم!!

أشار تَالُوثَانْ إلى أحد العبيد، فأمر شيخ القرية الجنود بسحبه.. كان يعلم أنهم يجرونه إلى مذبح القرابين، كأي عجل يذبحه القرويون في مناسبات الأفراح. انصرف رجال القافلة إلى القبر ينبشونه، فيما كان خوار الأضحية الجديدة يمخر الفضاء. نقلوا الجثمان إلى مقبرة العبيد، وجاءوا يهرعون.. صاح أحدهم:

ـ أنيخوا الجمال! المطر يلاحقكم!

كان الأفق الشرقي ملبدا بغيوم داكنة تشوبها حمرة في أسافلها.. جمعوا الأمتعة في الناحية الغربية من جذوع الدوم وأناخوا الجمال، رؤوسها إلى الغرب. عصفت ريح شديدة عاتية، تولول، وتتوعد.. رأيت أحد بيوت الحشيش تتطاير أشلاؤه في الهواء. قبل أن يطبق الغبار وتنعدم الرؤية تماما.. انقصف أحد أغصان الدومة وتدلى كالجناح الكسيح. أحدث صوت انحطامه جفولا واضطرابا بين الجمال. كانت ذرات الحصى تصفع جسدي بقوة، فأحس لها وخز الأشواك عندما كان الجمل يجرني .

أخذت الريح تهدأ رويدا، رويدا وتتحول إلى نسيم منعش، مشبع بالرطوبة الباردة ورائحة المطر. السحب أصبحت لها خفة الأوعية الفارغة.. أحجامها صغيرة وحركتها أسرع.. تتتابع مسرعة إلى الغرب،

كأنما يطارد بعضها بعضا.. أطل البدر من الأفق، حيث كانت الظلمة معسكرة؛ أشعته الباهرة تلامس ذيول السحب المغربة، تحدوها، تحثها على الإسراع وإخلاء الميدان. ارتفع القمر قامة دومة، وأصبحت السماء نظيفة، صافية كالمرآة. نشطت أقدام الأسياد في رفس العبيد الكسالى، الذين كانت رؤوس بعضهم تتمايل من النعاس. بدأت طقوس العادة المألوفة من حمل الأمتعة على الجمال. وانطلقت القافلة، جمل إثر آخر.. الناظر إليها من الأمام أو الخلف، يحسبها جملا واحدا. لكنها تمتد مسافة فرسخ. العبيد الجدد كالجمال، يكون الواحد منهم بين ذنب جمل، وأنف آخر.. وأصحاب القافلة يمشون على جانبيها، وبضعة منهم يتبعونها. لم تعد تصلني زخات بول الجمل الذي يقودني.. لكن فرائصي ارتعدت بعنف واقشعر بدني من هول المفاجأة! الجمل – ورائي – عطس عطسة فظيعة اهتز لها كياني.. كان رأسه الضخم فوق رأسي تماما.. أيقنت أنه سيلتقم رأسي، كما يلتقم البراعم، ويفصلها من أغصانها. أحسست أن عنقي رشت بسائل ساخن لزج...

مر النَّصْرانِ في محاذاتي؛ حبات سبحته الطويلة تنزلق من بين أصابعه وترتطم ببعضها، محدثة طقطقة منتظمة. كان قد تعب من السير في طريق وعر.. فأراد أن يتشفع بهذا السلوك الديني، عسى أن يرق له رجال القافلة فيُرْكبوه.. صار يساير كل صاحب جمل بعض الوقت، يشكو إليه التعب ويستجديه.. لكن الجمال كانت مثقلة بما يكفي وهي أعز على قلوبهم من النصْرانِ. لو كان للجمال قدرة إضافية لركبها أصحابها!! لم يجدِ الإلحاح شيئا، فرفع صوته بالشكوى:

ـ تعبت كثيرا، إنني مرهق جدا! قدماي داميتان من الأشواك، لم أعد أستطيع مواصلة السير!!

لم تكن النَّصْرانِ دربة على السير الطويل.. وهو منهك من التخمة، وما تبعها من دواء وقيء. كان بعضهم يواسيه :

ـ تسلح بالصبر، فالصبر مفتاح الفرج، والجنة حفت بالمكاره!

كان يفهم من هذه الردود أنهم يسخرون من تقواه وأن الجنة التي يشيرون إليها هي جنة نساء أَوْدَافُوسْتْ التي يتجشم الصعاب لدخولها. لما يئس من أصحاب الجمال، طلب من واحد من قدماء العبيد أن يحمله على ظهره، مقابل ثلاث ورقات من التبغ. الطريق أشد وعورة من السابق.. الرجال يعثرون بالأحراش هنا وهناك.. توقعت أن ينكفئ أحد الجمال المثقلة في حفرة من الحفر، لكن يبدو أن الجمال لا تعثر!! إنها تملك قدرة على الإبصار الليلي! العبد المركوب يتوقف بين الفينة والأخرى، ينزع من قدميه الأشواك.. يلتقط أنفاسه، بينما يظل النصْرانِ منتصبا على كاهله، واضعا فخذيه البيضاوين على عاتقيه، ورجلاه مدلاتين أمام الترقوتين، تلامس قدماه الخصرين.. يبقى راكبا بينما العبد ينحني لينزع الأشواك.. لا يريد أن يتعب نفسه بالنزول والركوب!! كان المركوب يخطو بصعوبة، يتصبب عرقا؛ صار تنفسه زفيرا وشهيقا، كتنفس الثور المريض.

ـ بكم اشتراك سيدك؟ قالها النصْرانِ يبحث عن أي شيء يبدد ضجر الطريق، أو لمجرد أن يقول كلاما .

لم يجب المركوب على الفور، كان غاصا بالزفير والشهيق. ولما اعتدلت الطريق قليلا، استطاع أن يلهث بجواب:

ـ سيدي ازْلِي .. تَنْ .. ازْليتَنْ اش ... اشتراني بمقاس قدمي من ... الملح... قب... قبل ذلك... كنت فلا... فلاحا في حق... حقل من... التبغ... عند... مالكي الأول!

كان من الصعب فهم كلامه المتقطع باللهاث.. والنصْرانِ لم يكن يصغي إليه، فهو لا يريد جوابا أصلا.. كان رافعا خيشومه إلى أعلى، يتأمل درب التبانة، الطريق البيضاء في السماء. ثبت بصره على الرامي الذي كان في برجه على وشك أن يطلق سهمه، تراقبه بإعجاب جميلات الصيف الثلاث. السماء من حول البرج كانت مرصعة بالجواهر اللماعة. والليل يسري كنبض العرق، موهما الكائنات أن الزمن قد توقف، وأنها تستطيع معانقة وجودها خارج سلطانه!! لم يكن ثمة ما يخدش سكينة الليل سوى صوت انحطام الأعشاب تحت أخفاف الجمال...

2

مُوسَى اسْبَعْ

"حي على الصلاة!" الضياء الذي سربل الأفق منذ حين أفرغ السماء من نجومها، كأسراب الطير الهاربة من الحريق. وحدها الزهرة قاومت نار التنين، ملوحة لفارسها القمر، قبل أن تختطفهما الشمس.. لم ينيخوا الجمال، ثبتوا زمام رأس القافلة في شجرة.. اصطفوا بالمناكب وانفرد واحد منهم يقلدونه فيما يفعل.. لحق بنا النصْرانِ على مركوبه، أدرك الركعة الأخيرة؛ أخذ مكانه في طرف الصف.. أنا أيضا كنت أصلي؛ كان سيدي يرغمني على الصلاة ويضربني إذا قمت إليها متكاسلا.. انتهزت فرصة التركيز ناحية القبلة لأسترق النظر. رأيت صفحة وجه النصْرانِ المقوس؛ كانت ابتسامة ازدراء غامزة ترتسم على زاوية شفتيه المائلة نحو الأعلى... الناس الغادون إلى حقول الدخن والكتان، المتمايلة تحت أنفاس الصباح يمرون بالقافلة، يحدقون في المصلين، ويتابعون طريقهم. "السلام عليكم!" نطقها المصلون بصوت واحد. وتفرقوا... كانت الأرض قد لبست حلة من الديباج الأبيض احتفاء باليوم الجديد.

القرية الصغيرة، النابتة على كتف الربوة، استيقظت لتوها على مشوارها السيزيفي. طرقاتها ضيقة ومتعرجة؛ البيوت أخصاص من الحشيش المنسوج بعضه ببعض، ليس لها نوافذ، ظهورها محدودبة، ململمة كالقواقع.. مداخلها واطئة، يدخلها الناس راكعين. الأحواش خضراء من الحشيش الأصلب موصولة ببعضها، مدعمة بأعمدة مركوزة في الأرض. يحوي الحوش عددا من الأخصاص، ولا يخضع لأي تخطيط أو قياس.. يكون كبيرا أو صغيرا.. ويكون مستقيما من جانب ومعوجا من جانب، ودائريا من جانب. ثمة أخصاص ليس لها أحواش، تحيط بها أعمدة خشب متباعدة.. صيادو الأسماك في الأضاة المحاذية للحقول، يضربون صفحة الماء بعِصِيّ كأذناب البقر، وينظمون السمك المصطاد على أعمدة طويلة، يتدلى منها كأنه عقد طويل من تمائم السحرة.

سارت القافلة إلى منتصف النهار.. الحرارة شديدة، والقيظ ثقيل. حطوا الرحال في فناء الشجرة التقليدية التي تنزل بها القوافل إزاء كل قرية. بائعات الأطعمة تأخرن على غير المعتاد. هناك حادث عظيم!! أغلب سكان القرية مجتمعون في الساحة، هائجون يتخاصمون، يلوحون بأيديهم وآخرون في وسط الساحة يشدون وثاق إحدى الفتيات: إنهم يستعدون لرجم عروس لم تثبت عذريتها. كانت بنت بضع عشرة سنة، آية في الجمال.. جمالها – ربما – هو الذي ألقى بها إلى التهلكة!! أشحت ببصري عن المشهد المؤلم، فوقع على "مركوب" النصْرانِ يتهاوى بين الأحمال من شدة الإعياء. خلى سيده سبيله؛ لقد أعطاه ورقات التبغ التي أجر بها ظهره!! أصبح النصْرانِ صاحب فضل على السيد، إذ أتاح له أن يستفيد من عبده في هذه الرحلة التي لم تكن للعبد فيها فائدة تذكر. رأيت مراهقا – من أهل القرية – يعلب لعبة " ادْيَارَا لاَكَاسِّي" بخذروف

في يده يسمع له دوي كزئير الأسد. تذكرت أني لاعب جيد.. عندما اقتلعتني القافلة من قريتي لم يكن قد مضى سوى عشرة أيام، عندما اجتزت بامتياز امتحان الانتقال من جيل "الأشبال" إلى جيل "الأسود". كانت جماعة "الأسود" قد اصطفت في صفين يفصل بينهما ممر ضيق، يمر منه المترشح وعلى كل واحد منهم أن يوجه لطمة إلى المترشح.. فإذا احتمل وصبر وثبت إلى النهاية يصبح "أسدا".. وإذا اشتكى أو فر أو أظهر التألم، يبقى "شبلا".. علمنا "الأسود" "ادْيَارَا لاكَاسِّي" (استحداث زئير الأسد).. من يدخل مجتمع "الأسود" يخلع ثياب المراهقة، ويلبس لباس "الأسود".. لقد أعطوني سروالا مزينا بسيور طويلة ملونة، بدل الخرقة القبيحة التي يلبسها "الأشبال". كان سروالي من النوع الذي لا يلبسه إلا الناجحون بامتياز. الآن وقد اختطفتني القافلة فإن سروالي الثمين تلف وتمزق.. وأنا أبتعد كل يوم عن القرية، وعن مجتمع "الأسود" فيها.. في كل القرى التي تمر بها القافلة يوجد "أشبال"، و "أسود"، و شبان، هم سادة ساحة القرية.. كما يوجد شيوخ معمرون راحوا ينظرون إلى حقب الزمن تتحطم على شاطئ الأبد. كلهم معرضون لاختطاف القدر، كما اختطفتني القافلة !

كانت الشمس قد أرخت قبضتها قليلا، عندما جاءوا بالجمال وأناخوها بين الأعدال ووضعوا عليها الأحمال. انطلقت القافلة. مرت محاذاة القرية، من جانبها الغربي. ظلال الجمال ضعف قامتها، وهي منتظمة، ترقص في تناسق.. كانت أكثر إثارة لأهل القرية من الجمال نفسها. كان شِيبَارُو، دليل القافلة، يأخذ بزمام الجمل القائد. هذا القَنْقَارِي من سهل تَنْبَاءُورَا، استوطن منذ زمن بعيد أَوْدَاقُوسْتْ، الميناء الأعظم لمحيط المجابات الكبرى، وامتهن دلالة القوافل.. كان يلبس درعا من جلد ويخزع في مشيته، لأن إحدى رجليه أقصر قليلا من الأخرى. كانت أجرته، في الذهاب والإياب، صفيحة ملح. الجمل القائد مملوك لتَالُوثَانْ

الزناتي، أحد أغنياء أَوْدَاقُوسْتْ، يملك بالإضافة إليه، عشرة جمال في القافلة. لقد باع جميع ملحه في هذه الرحلة، وهو عائد بالكثير من الذهب وبضعة عبيد ممتازين. أحيانا يسير في مقدمة القافلة إزاء الدليل، وأحيانا في وسطها، ويكون طورا في المؤخرة. يمسد لحيته الطويلة ويفكر في أمر أخذ عليه مجامع قلبه: قبل مغادرة أَوْدَاقُوسْتْ بأيام، وشى له أحدهم بأن زوجته تخونه مع عشيق لها !! أحتلت مساحة ذهنه صورتها وهي تودعه..

«كانت تبدو متألمة، شديدة الانزعاج، ترجو أن لا أسافر، تختلط في صوتها نبرة الحزن، بنبرة الغنج والدلال.. بقيت واقفة وقتا طويلا على عتبة الباب، تبكي، تتباكى؟ وتلوح بيديها، تلبس قميصها الحريري منفتح الأزرار العليا، كاشفا أخدود الصدر البرونزي المار بين رمانتين متوثبتين.. ويشتد ضيقه على السرة، يغري بلطافة الخصر الدقيق.. الدمعة المترقرقة في عينيها النجلاوين تهم بالانحدار ولا تكاد، أضفت على وجهها القمري جاذبية شهوانية مسعورة. كانت تتمتم بكلمات تشير إلى نفاد صبرها واحتجاجها على الأسفار الدائمة الطويلة!! عندما أرجع إلى أَوْدَاقُوسْتْ، سأعلن بعد أسابيع أني مسافر سفرا بعيدا.. سأهيئ لوازم السفر وألتحق بإحدى القوافل، أرافقها حتى أول محطة.. هناك سأعلن لهم أني نسيت أشياء مهمة ولا بد أن أرجع.. سأعود ليلا.. أترك جملي مسافة من البيت وأقترب متسللا لا يراني أحد.. أراها تضاجعه تحت ضوء باهت أنيس، تظللهما سحابة من دخان البخور العطر.. هي لابسة لباس النوم، أصابعها تعبث بحنان بشعر رأسه الفاحم، كأنما تمشط لمته الكثيفة بأصابعها الطرية المبرعمة. أنفه وشفتاه يلامسان أخدود صدرها البرونزي بين ثدييها الناهدين المتمردين. سأدخل دخولا علنيا يبث الرعب في البيت وأراها تخفّي العشيق.. أقول لها إني رجعت في هذا الوقت لأمر عادي جدا.. أبدو لها صادقا تماما وتهيئ لي العشاء، تدعوني للمائدة فأقول

لها حينئذ: "استدعي ضيفنا" "أي ضيف؟ ليس عندنا ضيف!" "بلى عندنا.. ألا يوجد في تلك الغرفة ضيف؟" سوف تستمر في الإنكار. أقوم أنا إلى الغرفة.. أدخل على العشيق: "السلام عليكم! تفضل يا حضرة الضيف، العشاء جاهز!" "ليست لدي شهية للأكل في موقف كهذا! الموت أحب إلي من هذه الفضيحة التي أنا فيها!" "لا تيأس! رجال كثيرون قبلك وقعوا في شيء كهذا.. إنه أمر عادي لا يستحق كل هذا التضخيم، هيا للعشاء!" سيقبل آخر الأمر، ويتعشى معنا، وأودعه، وأخرجه من باب خلفي لا يراه أحد.. سأجعله يحس أني حريص مثله على إخفاء كل شيء ونسيانه!! سأرجع إليها وأقول: "لا تنزعجي لما حصل! لقد سبق لكثيرات قبلك أن انجرفن مع شهواتهن.. القليل من الناس من يستطيع التغلب على شهوته. هوني عليك، لن يطلع أحد على هذا السر، أنا لست غاضبا كما تظنين، إني أعرف أنك تحبين الرجل حبا ساميا.. وأنا رجل أقدر عاطفة الحب السامي وأحرص على أن أفسح أمامه الطريق ليتحقق بصورة شرعية يكون رأس صاحبها مرفوعا! لا يوجد في الحياة شيء أجمل من الحب الذي يبلغ غايته بصورة طبيعية ومشرفة! سأطلقك بطريقة عادية ويتزوجك ضيفنا الكريم بصورة عادية أيضا، لكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بشرطين: أن ترسلي إلى أهلك يحضرون وتطلبي مني الطلاق وهم شاهدون.. وعليك أن تلحّي في الطلب. سأبدو كمن يرفض، لكني سأوافق في النهاية. الشرط الثاني: إذا مضى على زواجكما عام، أرسلي لي أن أزوركما في البيت، على أن يكون زوجك حاضرا. بهذه الطريقة يا زوجتي العزيزة، تكوني قد أنصفت حبك السامي، وأنقذتني أنا من الإحراج أمام الناس!"

«من المؤكد أنها ستوافق بارتياح على اقتراحي، لأنها لا ترى حتى الآن من عشيقها سوى جوانبه الحسنة.. سأرسل إلى أهلها أرجوهم أن يحاولوا صرفها عن مطلب الطلاق، وستقول لهم هي أنها لم تلق مني

أي أذى، لكن عواطفها انصرفت إلى ناحية أخرى، ولا تستطيع التحكم فيها. وسأبدي أنا رغبتي في الاحتفاظ بها، وأوافق على الطلاق في الأخير، بشرط إسقاط حقوقها. سيشكرني أهلها وسيوجهون لها هي الملامة. عندما تتزوج عشيقها وتعاشره معاشرة كاملة، ستتأكد أني أفضل منه بما لا يقاس.. وسيبدو لها العام مدة طويلة وستستعجل نهايته لكي ترسل لي تطلب الزيارة المتفق عليها. ستنظر إلى الزيارة على أنها فرصتها الوحيدة للتخلص من عذابها.. سألبي دعوتها.. وسأجدها تنتظرني عند الباب، في أشد حالاتها فتنة وإغراء، كاشفة عن مواطن الإثارة في جسدها...» تخلف عن القافلة دون أن يشعر، تحت وطأة عالمه الخاص.. كان القمر قد ارتفع في السماء فبدت النجوم من حوله أقل عددا، مبعثرة، لكنها أكثر بهاء. كان يخطو متباطئا، يمسد لحيته وهو يواصل اجترار غيرته:

«... كاشفة عن مواطن الإثارة في جسدها الناعم. ستطنب في الشكوى من زوجها، وهي تشير إليه بإصبعها أثناء الكلام. سيحتقن وجهه من الغضب، وتعصف به موجة عاتية من الغيرة المجنونة، فلا يعود يتحمل.. يتجه إلى قوسه ويسدد لها سهما مسموما يرديها قتيلة.. فينقض عليه أهلها، ويقتلونه قصاصا. بهذا أكون قد انتقمت كما ينبغي، وتخلصت من هذه العاهرة وعشيقها، دون أن ألطخ يدي بالسائل الأحمر في عروقهما، المحمل بالعار والشنار!! وبوسعي كذلك، إذا اقتربت القافلة من أَوْدَافُوسْتْ، أن أركب جملا أبكم. أسبق القافلة بليلة قبل اليوم المقرر لوصولنا. أنيخ الجمل خلف الدار، وأدخل متسللا. سأراه –عندما أقتحم المخدع – وهو يقبل جيدها بشراهة ونهم، وأصابعها مغروسة في كتفيه. لن يفطنا لدخولي، لأنهما في لحظة خارج الواقع، وخارج الزمن! أمر بهما، وأجعلهما يعتقدان أني لا أبالي بما يصنعان. سأقول كأنني أخاطب نفسي: "سَعْدَكْ يا سَعْدُ مَغْلاَها اعْلِيهْ!" سيكون لكلامي مفعول العقار الذي يبطل خدر العالم المسحور الذي يسبحان فيه وتغمر كيانهما موجة عاتية ثقيلة من الإحساس المؤلم بالواقع الكئيب الشديد الوطء على أعصاب

العاشقين السابحة في عالم النشوة البعيد. أنصرف عنهما وهما مذعوران، يتخاطفان قطع ثيابهما المبعثرة، كلاهما يخطف ثياب الآخر ظانا أنها ثيابه. سآمر خادمتي المفضلة بإحضار المائدة.. أقفل الباب وأتعشى وحدي..

«وقد يكون العشيق خادمنا، الشاب ذو الوجه المسيحي، القادم من أَرَتَانْ. عندها سأغادر بعد يومين من وصول القافلة، مدعيا أني ذاهب بفرسي إلى سباق، وأتعمد السقوط.. سيحملونني إلى البيت، زاعما لهم أني على وشك الموت، لا أستطيع حراكا. ستحضر زوجتي الأدوية اللازمة، وتجالسني شطرا من الليل. سأبدو كأني صريع لا قدرة لي على الكلام. وعندما تجدني هكذا ستذهب إلى العشيق الذي ينتظرها في جناح الخدم. وسأنهض في إثرها متجسسا.. أسترق سمع نجوى العاشقين.. سيقول لها مسيح أَرَتَانْ: "كدت ألا تأتي! لقد تركتني بلا عشاء!" "شغلني هذا المريض الثقيل، لا تلمني أنت عشيق قلبي، والمريض ما هو إلا أبو العيال!" أعود إلى غرفتي على رؤوس أصابعي، كأن الأمر لم يكن.. لكن عندما يدعو الداعي إلى الجولة القادمة من الحرب وتحمل المدينة السلاح لصد العدو، سألبس لامتي وآمر المسيح وبقية العبيد بحمل السلاح، وعندما يلتقي الجيشان سآمره بالتقدم، وأنني أحميه من ورائه .. وعندما يتقدم أترك لهم المجال للإجهاز عليه. سيكون أول قتيل في المعركة، ولن يخطر ببال أحد أن موته كان انتقاما! ستستقبلني زوجتي مهنئة بالسلامة.. أقول لها: "هذا جيد، ولكن عشيق القلب لم يسلم! أما الذي تهنئينه بالسلامة فما هو إلا أبو العيال!" سوف تتذكر أنها قالت ذلك لعشيقها، وتتأكد أني سمعتها، وتطلب الطلاق، وأوافق...»

توقف على ربوة صغيرة ليخفف الضغط عن مثانته. اصطدم البول بقشرة الأرض المحمرة في سواد، فزل عنها لأول وهلة، لكنه لم يلبث أن أحدث نقرة اتسعت مع استمرار الخرطوم. على الجانب الأيسر للأخدود، تفرع خيط رقيق راح يتلوى كأنه أفعى تتقدم ببطء باتجاه النعل السميك المقطوع من رقبة جلد حمار وحشي، والمزين بحلقة من النحاس الأحمر، مثبتة عند ملتقى الشسع بالشراك. لكن الكسر، الذي أحدثه النعل في القشرة الأرضية، أغرى أفعى البول بالانغراس في الأرض، قبل أن تلامس النعل.. تململ قليلا وأخذ عودا يابسا راح يمسح به بقايا القطرات العالقة. رفع رأسه ومد بصره ناحية الشمال الشرقي. كان جو الصباح الباكر يعطي للعين كامل مداها في الرؤية.. رأى مؤخرة القافلة وهي على وشك أن تبتلعها إحدى الوهاد.

لما عششت الشمس في كبد السماء، وصارت القافلة تسبح في سراب متلاطم الأمواج، عثر شِيبَارُو على مرفأ مناسب وألقى مرسى القافلة تحت ظلال شجرة دوم، عند مدخل قرية سَامَا. كان رجال القرية يخلفون بلا ثياب، عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم.. وكان النساء حليقات، كأن رؤوسهن البطيخ. كن عاريات أيضا، إلا من أنساع رقيقة تتدلى قدر شبر على عاناتهن، تكشفها أكثر مما تسترها. خرج النساء يحملن على رؤوسهن القصاع الكبيرة، وأخذ كل واحد من أهل القافلة حاجته. الفتاة الناعمة ذات العينين النجلاوين، تعمدت البقاء، بعد أن رجعت زميلاتها.. كانت تطيل النظر إلى وجه تَالُوثَانْ.. اقتربت منه لتقف قبالته تماما.. نطقت بكلمات لم يفهمها.. صاح على شِيبَارُو يطلب ترجمانا.

ـ ماذا تقول هذه الفتاة؟

كررت كلماتها، وعيناها مثبتتان على وجه تَالُوثَانْ.. ظهرت نشوة غامرة على وجه شِيبَارُو، رفع يديه إلى فيه يحاول إخماد زوبعة من الضحك

تكاد أن تنفجر في صدره، لكن عينيه أفاضتاها دموعا لامعة. ألح تَالُوثَانْ في الاستيضاح:

ـ ماذا تقول؟

ـ إنها... ها...ها... تريد... ها ها... تتمنى أن... ها ها... تعطيها لحيتك... ل... هاها... تلصقها على... هاها... عانتها!

ـ ماذا؟ تكلم يا ملعون! كيف تجرؤ الأمة على أن تقول شيئا كهذا؟

كان شيبارو يدفن رأسه بين كفيه، ويتلوى، يقاوم نوبة ضحك هستيرية.. حاول أن يرجع إلى مستوى من الجدية احتراما لدرجة الغضب الذي أظهر الزناتي.

ـ إنها عادة أهل هذه القرية، رؤوس النساء حليقة وعاناتهن معفية وطول شعر العانة من معايير الأنوثة والجمال...

لم يهدئ ذلك من غضب الزناتي، بل زاده استعارا.. رفع عصاه في وجه الفتاة التي ولت هاربة تلوذ بالأحمال المبعثرة.. فراح يهرول في إثرها، حتى علقت رجلها بحبل من أحد الأحمال، فسقطت بين عدلين، وسقط فوقها.. أسمعا تجديفا، وصيحات، وشهقات، وضحكات مكتومة.. ثم صيحات أخرى، وشهقات، وحشرجات... كان جسداهما معروقين عندما نهضا من بين الأحمال، وكانت خطواتهما مرتبكة.. هو ينفض الغبار عن لحيته الطويلة، وهي تصلح من وضع سترة السيور التي انجرفت. انطفأ غضب الزناتي، كالسحابة التي أفرغت شحنتها من البرق والرعد! توقفت أبصار أهل القافلة، التي كان يداعبها نعاس القيلولة، عن ملاحقتهما. من حول القافلة، كانت الحيوانات تتزاحم لتأوي إلى ظلال الأشجار. وحدها الجمال لا يزعجها القيظ، تبرك في الهجير، ورؤوسها مشرعة نحو الشمس. أما الكلاب والطيور الداجنة فقد تجاوزت درجة الغليان تحت الظلال وفوق التراب المبلل.

عندما خفت وطأة الشمس، حُمّلت الجمال؛ وقفت متباطئة وانطلقت القافلة. خرج فتيات ساما يودعنها برقصة "شق البحر". سلكت طريقا ضيقة، كأنها الجرح الغائر بين الأعشاب اليانعة، في محاذاة المزارع الممتدة شمال القرية. كان العبيد الجدد ما زالوا مشدودين إلى الرحال، يحاول بعضهم المشي خارج الطريق الضيقة إلى جانب الجمال. كانت سنابل الزرع تنفتل أحيانا مع قدمي فأترنح. الأحمال لا تأخذ وضع الاستقرار النهائي إلا بعد ساعة من السير، وبعد أن تعرق ظهور الجمال من تحتها. لذلك كانت القافلة ماتزال تحت المراقبة، وهم يصلحون من وضع هذا الحمل أو ذاك، يعوضون حبلا انقطع هناك، ويعقدون حبلا انحل من هنا، ويشدون حبلا ارتخى من هنالك. بعد ساعة، ستخف حاجة القافلة إلى المراقبة، فيستطيع أهلها التخلف عنها بعض المسافة، وينصرف بعضهم للغناء والأحلام بالمرافئ البعيدة.. ويستطيع هذا المدخن الانهماك في إدمانه المزمن. سيخرج من جيبه وعاء عتاد التدخين: حافظة جلدية مستطيلة الشكل، تضيق من وسطها قليلا، وتتسع من الأمام والخلف، على شكل النعال الجلدية الصغيرة. تتدلى من مؤخرتها علاقة طويلة. تتألف الحافظة من عدة طبقات كأم التلافيف، السفلى منها للتبغ، تبغ الكركرية الأصيل، النابت تحت نخيل جبل لَمْتُونَة؛ والوسطى للكتان الناعم والعليا للزناد والقداحة والغليون. سيخرج الغليون أولا، أسفله من عظم ضلع الشاة المجوف، وأعلاه من نحاس أحمر، ويفتح حجرة التبغ، يلقم منها الغليون بالسبابة اليمنى، ثم يخرج القداحة والزناد من الطبقة العليا، ويخرج قطعة صغيرة من القطن الأصفر من الطبقة الوسطى. وحينئذ يدخل ساعده الأيمن في ثنية العلاقة ويترك الحافظة تتدلى، محررا يده الأسيرة، حيث يضع رأس الغليون المعبأ بالتبغ تحت جذر الإبهام، ويقبض على وسطه بالخنصر والبنصر، المنكمشتين. ثم يضع على القداحة قدر أنملة من القطن، ويمسكها بين السبابة والإبهام، ويتناول الزناد بيمناه ويقدح.. قد تخيب القدحة الأولى، وتطيش القدحة

الثانية، فيصلح وضع القداحة قليلا، ويقدح الثالثة.. تعم الشرارة نتافة الكتان، فيسعفها بنفخة موزونة من فيه، لتنتشر فيها النار. عند ذلك يضع القطن المشتعل في فم الغليون، على لقمة التبغ ويحكم تثبيتها بالرأس المدببة للزناد.. يضع مصاصة الغليون في فمه، ويجذب جذبة، ينفثها على الفور: إنها غير مهمة، لأنها دخان القطن المحترق؛ ثم يجذب الجذبة المهمة الأولى، عميقة متمهلة إلى أن يمتلئ مجال شدقيه بدخان التبغ النقي. يسحب الغليون من فيه، يدفع الدخان المتجمع في حنجرته بشهقة صغيرة ولكنها قوية، تدفعه إلى مواطن النشوة في الرئتين، فيكون له مفعول مخدر قوي. ثوان قليلة ويخرج الدخان من المنخرين كالنافوخ، ناصع البياض، بعد أن انتشر في مجاري الرئتين، وخلف في دم المدخن حمولته من القطران التي كانت تمنحه لونا أزرق داكنا. عندما ينتهون من إصلاح أوضاع القافلة، وينصرف المنصرفون منهم إلى الغناء والأحلام، والتدخين، نبقى نحن العبيد الجدد في عذابنا السرمدي. وتبقى الطبيعة من حولنا خلابة: السماء زرقاء عميقة صافية، تستحم في زرقتها العيون؛ نظيفة، إلا من بقايا قزع صغيرة شاهقة العلو، كأنها عوامات بعيدة المنال. هبات متقطعة من النسائم الدافئة تمر فوق القافلة، وتمضي مسرعة، تلفظ أنفاسها بين الحقول. إنها أنفاس القيظ الذي بدأ حشرجة الموت. ازدرد المدخن جذبة ثانية.. كان قابضا على الغليون بأسنان مسوسة يتخللها السواد، كأنها أصول عشب أكله الحريق. صاح به أحدهم :

ـ أعطني فضلة الغليون!

ناوله الغليون، لكن الدخان الجيد كان قد نفد.. لم يتجرع إلا دخان البقايا المتكلسة في أشداق الغليون، دخان كريه، ثقيل الرائحة... الظلال التي كانت منكمشة، متطامنة على نفسها كالسلاحف، أخذت تمد أعناقها، وتتطاول بعيدا، كأنما أصابتها نوبة من الشجاعة المفاجئة، فتحولت إلى جيش متكاتف يستعد للاستيلاء على مملكة الأرض. أسراب الطيور أخذت تروح، وتجئ راسمة أشكالا متحركة لا تحصى، تنفذ تمرينات

أخيرة في عالم الحركة، قبل أن تلقي بنفسها في أحضان السكون. حث المدخنان خطاهما للحاق بالقافلة.. أحسست قشعريرة تسري في بدني، تغمرني. كائنات خفية تأتي من كل الجهات، وهي على عجلة من أمرها، تفتش عن مبيت.. الأشياء خلعت مظاهرها المألوفة وظهرت بوجوه جديدة مرعبة، إنها تتحرك، تحيا مع قدوم الليل!

استقبلتنا دومة قرية إيرَسْنِي للمبيت. لم يكن القمر قد طلع بعد.. ولولا فطنة شِيبَارُو، التي صدقتها نيران القرية ونباح كلابها، لضللنا الطريق. كالعادة أوقدنا نارا عظيمة للاستضاءة وطرد جحافل البعوض. كان طعام القرويات رديئا، فلم تشتر القافلة سوى الحساء، واللبن الحامض. كان البعوض يعذب الجمال، وهي ترفس وتضرب لباتها بأيديها وأذنابها على جنوبها. أعطاني سيدي قدحا من اللبن الرائب، نهلته دفعة واحدة، فلم يخفف إلا قليلا من عطشي وجوعي وتعبي. عندما أنهيت الخدمات التي يطلبها سيدي نمت نوما عميقا، كأنه الموت.

غادرنا إيرَسْنِي بعد طلوع الشمس، كانت القرية ونواحيها سابحة في بحر من الضياء. أسراح الماشية تغادر مراحاتها، وقطيع من إناث المعز يحك جنوبه على جذوع الأشجار. القافلة تمخر عباب لجج الضوء الذي يكاد يتجسم، كأنه الفضة المذابة. وضعوني في الحبل التقليدي، لست أدري لماذا، لا يفهمون أني لم أعد بحاجة لذلك.. لقد بلغ مني التعب مبلغا لا أفكر معه في شيء إطلاقا.. وصلت مرحلة اليأس النهائي.. انقطع كل أمل لي بالعودة إلى الحرية، إلى قريتي. كنت أشيح بوجهي إلى الوراء تحاشيا لزخات بول الجمل أمامي، عندما وقعت عيناي على وجه عبد جديد.. كانت عيناه محمرتين، تختلط دموعهما ببول الجمل السائل على وجهه المطبق، المنغلق. هبت الرياح الجنوبية فأنقذتنا لبعض الوقت من

بول الجمال. انحرفت الطريق قليلا إلى الغرب، لتتجاوز إحدى الهضاب الكبيرة. كان في منحدر الهضبة جحر كبير.. على مدخل الجحر عريش تغلفه أكوام من الأقمشة المختلفة الألوان. كلما تقدم سيرنا، كلما اتضحت معالم دار حجرية سقفها مقبب، تقع شمال العريش مباشرة، يخرج منها الناس تباعا، يحملون قدورا ضخمة ويضعونها أمام فوهة الجحر وهم يطلقون صفيرا عجيبا يتموج في جميع أنحاء السهل. كانت القافلة على وشك أن تتجاوز إلى الجانب الآخر من الهضبة، حينما ظهر رأس تنين من فوهة الجحر... لكن المشهد المثير ما لبث أن توارى مع تقدم القافلة...

على مشارف اغْيَارو، خارج الخندق المحيط بالقرية، استقبل القافلة أبو موسى ومعه العبيد يحملون الأطعمة والشراب.. هذا المهاجر الإباضي أصله من منطقة الجريد.. مر بالقرية مسافرا في المرة الأولى، فأعجب بطريقة أهلها في الحياة التي تطبعها البساطة، وبأجسامهم القوية المتينة العارية.. فمكث فيها واستوطن، وأصبح منذ ذلك الوقت يشارك أهلها في حملات جمع التبر وفي الغارات الدائمة على لَمْلَمْ، لسبي العبيد، والمتاجرة بهم في غَانَا وأَوْدَاقُوسْتْ. عند مغادرتنا من الغد خرج يودعنا إلى مسافة. كانت عيناه تدمعان وصوته متهدجا، حنينا إلى القوافل وحياة الماضي. تمنيت لو تواتيني الشجاعة فأقترح عليه أن نتبادل المواقع. المسافة بين اغْيَارُو وسَامَاكَانْدَا مغطاة بغابات كثيفة من الأراك، يمارس فيها شبان المنطقة هواياتهم، يصطادون ثمر الأراك بالسهام. بعد قرية سَامَاكَانْدَا يبدأ السهل الطويل الممتد إلى غانا، غانا المدينة التي تسحرني دائما بالأساطير التي تحكى عنها. لشد ما يؤلمني أنني لم أزرها إلا وأنا عبد. كنت ألعن الدهر الذي يسوقني إليها في مثل هذه الحال!

3
الرشق

في المحطة الأخيرة قبل غانا، أيقظني سيدي سَحَرًا. كنت مرهقا لم أستيقظ إلا بجهد كبير، رفسني كثيرا وصب علي قدحا من الماء. كان أفق السماء من الشرق مسودا تتخافق فيه بروق سراع.. المطر يبدو قريبا. كان العبيد قد حفروا لحودا عميقة أودعوا فيها حمولة القافلة.. رحت أحفر بسرعة، وسيدي مازال يهذر بكلام طويل.. «كم أتمنى أن أدفنه في هذا اللحد بدل الأمتعة!» خلعنا الثياب جميعا ودفناها مع المتاع.. صرنا عرايا، سواسية، عبيدا وأسيادا! لحظات قليلة وانهمر المطر.. استمرت السماء تمطر لبعض الوقت، كانت تمطر ماء وتمطر بردا أيضا. ما إن كف المطر حتى تحولنا حشدا من قطط الخلاء، بينها الأبيض والأسود، تنبش الأرض، تحفر مغارة جماعية. استخرجنا الأحمال والثياب والحطب..

مع انطلاق القافلة، كانت الشمس قد أطلت حمراء صافية.. كان السهل على مدى الرؤية ما زال غائما، مثقلا بضباب المياه المتبخرة،

والقرى المبعثرة على جنباته ترتفع منها أعمدة الدخان، تتصاعد ملتوية، كأرواح العفاريت المنفلتة من قماقمها... صاح أحد الراكبين:

ـ غانا! غانا !

رأيت، من خلال أمواج الضباب المتحركة مع الضحى، منارات المدينة تتقارب وتتباعد على وتيرة سير القافلة.. عند المشارف، استوقفنا الجنود وجُباة الملك.. أحصوا عدد الجمال وتعرفوا على محتويات الأحمال وحسبوا المستحقات ورسوم الدخول. صحت في وجه مجموعة من الجنود كانت تمر قريبا مني:

ـ النجدة! النجدة! ساعدوني أنا مختطف! اختطفتني القافلة عندما أرسلني أبي في طلب الملح!

لسعني أحدهم لسعة قوية بعصا رمحه وزجرني بشدة.

ـ اسكت!

دفعت القافلة الضرائب من الذهب والملح، وأذن لها بالدخول. سارت على الضفة اليمني من النهر الذي يقسم المدينة شطرين. مرت بالأحياء الواسعة في الضواحي الجنوبية المبنية من الأخصاص وأحيانا بالطوب أو الحجر. أسراب من الأطفال العراة يتراكضون في محاذاة جانبي القافلة يتصايحون، ويرمون العبيد المكتوفين بالحجارة.. اضطرتني حملة الرجم إلى المشي بين رجلي الجمل تماما. الفتاة التي تحمل على رأسها قدحا كبيرا تهرول إلى جانبي، تفتش بنظراتها عن وجهي، وتصيح:

ـ لبن! دجاج!

مررنا بحي مبني من الحجارة الضخام، وعلى الضفة الأخرى كان هناك قصر منيف، منزرع في قلب غابة كثيفة تحيطه من جميع الجهات. انحرف الجمل القائد عن محاذاة النهر، واختفى بين الحيطان

على الجانب الأيمن، وانعطفت القافلة في إثره كالقوس.. وجدتني داخل شارع ضيق متعرج، تحيط به دارات طوال ليس فيها نوافذ، عتباتها مرتفعة.. لم أعد أرى أمامي غير جملين، وذنب جمل ثالث، اختفى بسرعة إلى اليسار، واختفى في إثره عنق الجمل الثاني، فظهره، فمؤخرته، ثم الجمل الذي يجرني، وإذا بي فجأة وسط ساحة السوق. كانت الجمال الأوائل قد انتهت تماما من إنزال حمولتها.. وكانت قوافل أخرى تغادر السوق. كنت مرهقا، منهوكا، ارتميت على الأرض، لم أنتظر أن يفكوا عني الوثاق.. رآني سيدي فرفسني لكي أقوم، ساقوني مع بقية العبيد إلى حظيرة مغلقة يحيط بها سور حجري شاهق الارتفاع، وفي داخلها بضعة أكواخ. كان يحرسنا جنود أشداء مدججين بالسيوف والرماح. أقمنا بغانا ثلاثة أسابيع، تعهدونا خلالها برعاية جيدة..

ـ إنكم تحضرون للعرض في سوق أَوْدَاقُوسْتْ!

قالها أحدهم بدا مطلعا.

في يوم من الأيام أخرجونا من الحظيرة فوجدنا القافلة جاهزة للانطلاق. وأرجعوني إلى حبلي وجملي.. في المرحلة العاشرة بعد غانا، وبينما كنا نستعد للرحيل قبل طلوع الشمس لكي نصل إلى أَوْدَاقُوسْتْ قبل منتصف النهار، انحدر إلينا فجأة من التل مسلحون تغمرهم سحابة غبار، خيولهم جياد، مدججين بالسهام الطوال وبالسيوف والخناجر. راودني ذلك الأمل الذي لا ينقطع إلا بانقطاع الحياة: أن العصابة ستبطش بالقافلة وتنهبها وأنني سأستطيع، في غمرة الرعب والفوضى، الإفلات والهرب إلى غانا... لكن تَالُوثَانْ أخذ مخلاة وتقدم بها بنفسه، يهديها لزعيم العصابة، مع كثير من الاحترام. فتح زعيم العصابة المخلاة، فحص التبر بعينيه، وجربه بيده، وشمه بأنفه.. يظهر أنه أعجبه. رفع يده وأشار إلى رجاله بالانسحاب. اختفت العصابة بالسرعة التي ظهرت بها، وأحسست

أنا بألم القيد كما لم أحس به من قبل... وتبخر بصيص الأمل الذي راودني منذ لحظات، بنفس السرعة التي انقشعت بها سحابة الغبار التي أثارتها العصابة..

عندما انطلقت القافلة، كانت الشمس تسفر عن تاجها. كانت حجارة الأماعز تلقي بظلال متكاسلة على الطريق، كأنها تتلذذ بالاستلقاء على الرمال الناعمة المستوية. كانت تصل آذاننا أصوات متقطعة ومنتظمة، تتوثب من صخرة إلى أخرى. استغربت هذه الأصوات، لكني عندما رأيت رجلا منكبا على جذع شجرة علمت أن الحطابين اجتاحوا السهل. في الممرات المشجرة، وبين التلال، كان الشجر يرتعد خوفا من حملة القدائم، لكنه مثبت في الأرض، موثوق إليها، لا يستطيع الفرار من الخطر الزاحف. أسراح كثيرة من الإبل والبقر والغنم تتجمع على أفواه العيون، التي كانت تكثر وتتقارب باستمرار كلما اقتربنا من أَوْدَاقُوسْتْ.

عند الظهر، كانت القافلة قد وصلت إلى الهضبة البيضاء المطلة على أَوْدَاقُوسْتْ. المرابئ المنتشرة حول المدينة تصايحت، مبشرة بقدوم القافلة. عند الإطلال على المدينة، بدت مناراتها العالية تخترق السحب السوداء المعلقة في سمائها.. كانت المدينة قابعة في وهدة تحيط بها الجبال من كل الجهات. بقع المياه الراكدة في الشوارع تحولت إلى مرايا لماعة. بيوت المدينة النائمة في ظلال حدائقها استقبلت القافلة بابتسامة حمراء. كان القيظ مازال شديدا وكان يزيد من ثقل وطأته رائحة الدخان الذي غطى بسحب كثيفة سماء الحي الجنوبي الشرقي..

حطت القافلة في ساحة السوق، يغمرها الضجيج وازدحام الناس. صاح سيدي، الذي كان يفك عني الوثاق، بكلام لم أتبينه بسبب الضوضاء الصاخبة من حولنا.. جذبني بعنف من جناحي وأوقفني إلى جانب أحد الجمال، ففهمت أن علي أن أحط الأحمال... كان سوق قافلة الملح يجذب الكثير من سكان أَوْدَاقُوسْتْ: تجار العبيد، صيادو الطرائف من الأخبار والنوادر، جحافل الشعراء والموسيقيين السآلين، الذربي الألسنة؛ حدادون يبحثون عن الجلود والمعادن الكريمة، سحرة، حواة، باعة التمائم والشعوذات (الحافظة من الجن والعين والواقية من أسلحة الحديد، أو تلك التي تجلب النجاح في الحب والسعادة الزوجية أو رواج التجارة). دعاة الاتصال بالعالم الآخر، بائعات الهوى... جمهور مختلط من مختلف الأجناس والألوان تتلاقى فيه المسلمات المتحجبات، ونساء الطوارق الحاسرات الرؤوس والسودانيات الوثنيات حليقات الهام..

بعد أيام من الرعاية الجيدة، جاءوا بي إلى ساحة النخاسة، معرض العبيد التجاري.. كنت معروضا في جناح العبيد، قبالتنا تماما جناح الأسلحة التي تضم الرماح من جميع العيارات، والأقواس من مختلف الأحجام، والسيوف الحادة، الشديدة اللمعان، وبيادر الأتراس.. على يسارنا معرض الإماء وعن يميننا جناح الكلمة.. الإماء المعروضات شبه عرايا تتدلى على عاناتهن عقود من الخرز والعقيق الأحمر والخوص.. كان بعضهن يرقصن رقصة هز الأرداف على صوت مزمار يعزفه عنين ساحر.. وأخريات يتخافتن بأغنية مؤثرة بنبرتها العذبة، وشدوها اللطيف. نظرات الجمهور تسرح في حديقة مزهرة من الجمال الأنثوي. تحط على الشفاه الدقيقة، والخدود الأسيلة، والجفون الهدب، والخصور الهضيمة، والصدور المرمرية، والقوامات الرشيقة، والعيون الساحرة، والأنوف القنانيات، والثغور البراقة والبشرة الناعمة المتلألئة، والشعور الملساء السبطة، أو الجعدة المنفوشة إلى أعلى، كالقباب. بعض

الزوار كانوا يمدون أعناقهم ويفتحون مناخرهم للتزود من أريج عطور الجواري المثيرة. كان هناك عنين بربري، بوذي الشكل، يتولى التعريف بالبضاعة:

ـ هيا! تعالوا! اقتربوا! لاحظوا كم هن جميلات، فاتنات! انظروا إلى هذه، ووضع يده على خصر إحداهن، تستطيعون أن تحصلوا عليها بمائة وخمسين دينارا فقط! تقدموا! بإمكانكم أن تلمسوا إذا أردتم!

عندئذ رأيت النصْرانِ يتقدم، يزحف كالحشرة، يضع خيشومه المعقوف كالمنقار على هذه وتلك وهاتيك من الإماء..

الجموع المزدحمة في جناح الكلام تصدر ضوضاء متقطعة: شعراء يبحثون عن غاوين، بخلاء جاؤوا يرتدون مرقعات جنونهم، مغرورون يبحثون عن المدائح السهلة، الرخيصة؛ مبدعون يفتشون عن كلمات جديدة، أحيانا يعثرون على كلمات كأنها مواليد تقذف بها الأرحام؛ مهمومون بالوجود يبحثون عنه في ركام الكلمات... وآخرون يبحثون بين الشفاه وتحت الألسنة، يفتشون عن المقطع الأخير الذي ينقصهم لتكوين الكلمة التي تفي بكل معاني الكلام... الخطباء يبيعون الكلام بالقفيز والرطل: الشعر، النثر، التقاريظ، الهجاء، الغزل، الحكمة، اللطائف، الوصف، البيان، الهذر، الجنون... أوهام وأعاجيب وشطحات.. المرأة المبرقعة تتخطر، يشع من عينيها جمال حزين، تقطف من أفواه الشعراء والخطباء زهور الكلام، توعيها في صور ضخم تحت ثيابها، ترفعه إلى فمها من حين لآخر. وكان ثمة رجل دميم عظيم الهامة، يأتي كل يوم، يشتري كلمات يجمعها أمامنا في تشكيلة جديدة، لكنها تعطي دائما نفس المعنى.. يخاطب العبيد بلغتهم ويحاورهم.. بدا لي أنه يوليني اهتماما خاصا...

ـ إنكم بشر مثل الذين يدعون أنهم أسيادكم، قد تكونون أفضل منهم، لأن الذنب أزرى بهم... إن الشر يخزي الإنسان، تحرروا!!

لم يكن الناس يولون اهتماما لكلامه، لكن تجار العبيد كانوا يرجمونه بنظرات غادرة... في المساء، عندما تتفرق جموع السوق ويهدأ الضجيج، متبخرا في السماء مع غبار الأقدام، يوقد العبيد نارا ضخمة ويأخذون في الغناء الحزين على ألحان "لَقْنَيْبْرَه" وحيدة الوتر، يعزف عليها عازف يسمونه مَعْطَلٌّ. كان أبو الهامة يجالسنا، يتذوق العزف والغناء ويحرضنا على التمرد.

بقيت معروضا مدة أسابيع، لم يرغب في أحد، إلى أن اشتراني شخص يدعى ازْبَاغْرَ ببضعة دنانير.. دار سيدي الجديد مقامة بجانب مسجد أَوْدَاقُوسْتْ الكبير، في زقاق ضيق صامت يتأفعى بين الدارات الكبيرة القليلة الكوى. عندما جئت الدار للمرة الأولى كان الناس خارجين لتوهم من صلاة العصر. على جانبي المدخل الرئيس على الشارع، يتفرع من الحائط مقعدان. كانت عتبة الباب مزينة بزخارف جميلة وتتألف من عدة درجات وتعطي للدار فخامة كبيرة. الباب الأول من الداخل ثلاث خشبات حمراء اللون مرصوفة بعضها على جانب بعض بواسطة مسامير على شكل دوائر تبدو للوهلة الأولى وكأنها زخرفة، فيما هي تؤدي في الواقع وظيفة التسمير العادية. جرس الباب عبارة عن حلقة نحاسية مزخرفة. ينفتح باب المدخل على ردهة مزودة بمقاعد مبنية، لاصقة بجذر الحائط.. أول ما طالعني وأنا داخل، لوح حجري ضخم مثبت أعلى الباب، يحتوي نقوشا عديدة. عندما تتجاوز الباب الذي ينتصب فوقه اللوح، تنتهي إلى غرفة واسعة، مصبوغة من الداخل بالمغرة، ومبلطة الأرضية بالصفائح الحجرية الملساء، وفي الزاوية الشمالية الغربية، تبدو الدرجات الأولى من سلم يفضي إلى السطح. يمكن العبور إلى البيوت الموالية عبر عتبة كبيرة واضحة، كما يمكن العبور إلى الفناء

من عتبة أضيق. أقيم في الفناء ما يقارب العشرة من أخصاص الحشيش، يتنقل بينها الخول في حركة مستمرة... سمعت موسيقى حالمة، وصوتا شجيا يغني بنبرة حنين.. كانت امرأة شابة تجلس في فيء الأصيل على متكإ من الأعواد المتشابكة يرتفع ذراعا عند مدخل الممر، تحيط بها كوكبة من الفتيان، تفصح عيونهم عن نهم متوحش، فيما هي تداعب أوتار مزهر؛ تتخلل ضفائر شعرها السبط المرسل علائق الذهب والتمائم.. يظهر من جيبها الرحيب عقد من خرز بواسطة ذهبية ويبرق في معصميها دملجان فضيان أبيضان..

سلمني ازْبَاغْرَ إلى زعيم خول أعور، يخيل إليك أنه ربان قافلة.. أشار إلي أن أتبعه عبر الممر الفاصل بين جناح السادة وأخصاص الخول إلى المطابخ غير المسقوفة.. كان ثمة إماء يتصببين عرقا، يتنقلن باستمرار بين القدور المنصوبة على الأثافي... تركني الأعور في المطبخ، وعاد بعد لحظات يحمل كومة من الثياب الوسخة رماني بها وأشار إلى ربوة من الرماد ثم إلى سطلات في أحد جوانب المطبخ:

ـ اغسل هذا!! وليكن نظيفا صقيلا، وإذا لم يكن صقيلا فستغسله مرة ثانية، تحت السياط! أسرع!! قالها وقدمه تلامس مؤخرة ظهري في رفسه قوية.

ـ وأين أجد الماء؟

سألته بصوت منسحق يثير الشفقة، لفت إلي انتباه بعض الإماء، فتوجهت نظراتهن إلي.

ـ في الحسي، في الجانب الآخر من الفناء!!

تركني ويداي ومنكباي مدلاة لا أدري من أين أبدأ.. لما أخذت الأسطال لجلب الماء من الحسي، دفعتني بقية فضول إلى النظر ناحية المتكإ الذي

كانت تجلس عليه المغنية وعشاقها. كانت ما تزال في مكانها، يحيط بها الشبان، وقد طرحت المزهر وأخذت رؤوس بعضهم على ركبتيها وفي حضنها، تداعب لممهم، وتنفث في آذانهم نجوى خافتة، وتتبسم... رجعت إلى المطبخ وعلى رأسي سطل كبير ملآن بالماء، يتدفق علي من الأمام والخلف.. أخذت حفنة من الرماد وبدأت الغسيل وإلى جانبي أمة شابة تطحن الحب بين المهراس والمدق. كانت واقفة تردف صغيرها على ظهرها، تشده بخرقة، وبين يديها مدق طويل ململم الرأسين، ترفعه إلى أعلى وترسله كالرمح إلى قعر المهراس.. كان قدها يعلو ويهبط، كما في ركوع الصلاة، ويصاحب حركاتها رزيم ينطق به كل كيانها، تعبيرا عن معاناتها القدرية.. وكانت عجوزان من الإماء، كلاهما ارتخت عضلات جسمها، فأصبحت عظامها القوية كأنها تتحرك في وعاء، وكلاهما تعصب فوق حاجبيها بحزام، لو خلعته لسقط جلد الجبهة وأغمض العينين، أثداؤهما تحولت إلى أجربة جلدية فارغة تتدلى إلى مستوى الرفغين؛ تتخلل بقايا شعرهما المجعد الأشيب مساحات عارية، كأنها الشوارع المتعرجة في الأحياء الفقيرة المزدحمة، ينعكس عليها شعاع شمس الأصيل، كما ينعكس على قطرات العرق المتصبب منهما في خيوط مائية مستقيمة. كانتا تختصمان بشراسة، تضع كل منهما أصابعها المرتجفة في عيون ومناخر الأخرى...

مع هبوط الظلام جاءني الأعور؛ بدا عليه الارتياح من جودة غسيلي، فلم يلحقني بسوء.. أخذني في جولة تعريفية بالدار.. راح يقودني من بيت لآخر، يعلمني كيفية إشعال المصابيح الزيتية، ومواقد التدفئة والبخور الذي يطرد البعوض.. طلبني يوما لإرسالي إلى السوق:

ـ خذ! هذه خمسة وثلاثون دينارا، السيد دعا أحد الأصدقاء على العشاء، اذهب إلى السوق واشتر كلبا سمينا وخمس منوات من الجعة الجيدة...

ـ كلب!! أنا لا أميز الكلب السمين من الهزيل...

ـ سحقا لك! ارجع إلى المطبخ يا غبي!!

عند اقتراب صلاة الظهر، أمرني ازْبَاغْرَ بمرافقته إلى المسجد.. كانت تلك عادته منذ أيام. في أوقات السحر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.. أحمل له سجادته وإبريق وضوئه. بناية المسجد واسعة جدا ومطلية بالمغرة، كباقي البيوت الميسورة، وتتوسط حائطا واسعا مبنيا من الحجارة، مطليا بالتراب.. المسجد له جناحان، أحدهما خلف الآخر لجهة القبلة، تقع خلفهما مساحة مكشوفة تتوسطها أحساء وجرار ضخام، تحيط بها مصاطب من كل الجهات يجلس عليها المتوضئون. في وسط الجدار الشرقي للبناية غرفة المحراب، حيث ينفرد إمام الصلاة.. الحائط الخارجي للمسجد له ثلاثة أبواب، الجنوبي الشرقي والجنوبي، والشمالي الغربي. المسجد أخفض من الشوارع المحيطة به؛ القادم من الشرق إلى ساحته ينزل مع سلم من سبع درجات.. المصلى واسع وقليل الانخفاض؛ له أربعة صحون عرضية موازية لجدار القبلة. الأعمدة رباعية الزوايا بلا قواعد ولا تيجان، تحمل أقواسا مجتازة مرتفعة وضيقة، ذات تسليح خشبي.. المحراب والمنبر مزدوجان، في مشكاة مضاعفة ومستطيلة الشكل خارج الجدار.. يوجد محراب آخر يشكل بروزا إلى الخارج.. الجدار الشرقي له بابان، واحد بين المحرابين يؤدي مباشرة إلى الساحة الكبرى وآخر يؤدي إلى الرواق.. أما باب الجناح الجنوبي الشرقي فهو شارع إلى الساحة الكبرى.. الجناح الجنوبي الغربي له باب على الساحة الكبرى وبابان على الساحة الداخلية، وهي أبواب مقوسة ذات أقواس مجتازة ومنخفضة الوسط، وهذا الجناح له صحنان.. الأقواس بين الأعمدة منخفضة وواسعة وهي مكونة من حجارة ذات فراغات بينية للتهوية، دون فتحة للقنطرة.. تطل ثلاث نوافذ من الجنوب

على الساحة الداخلية ويوجد عمودان كبيران من الحجارة في المنطقة الوسطى من المصلى.. سكون وتجريد، لا توجد أي زخارف في المسجد..

كان ازْبَاغْرَ يتوضأ مستقبلا القبلة، يتمتم ببعض الأدعية. غسل يديه أولا وتمضمض ثلاثا واستنشق واستنثر كذلك، ثم غسل وجهه وساعديه ثلاثا ثلاثا.. مسح رأسه براحتيه المبللتين ومسح أذنيه كذلك، ثم غسل القدم اليمنى فاليسرى.. أغمض عينيه وصار يتمتم بدعاء خافت رافعا يديه قبالة وجهه.. لبث كذلك خافضا رأسه، كأنما يستنشق رائحة الثرى المتصاعدة من وضوئه.. وقف وتقدم خطوات ثم توقف.. وضع عرقوب قدمه اليمنى عند إبهام يسراه؛ رفع اليسرى وفعل بها كما فعل باليمنى.. كرر ذلك مرة ثانية.. كان طول ظله أربعة أقدام..

ـ حان وقت صلاة الظهر!

تقدم المؤذن نحو سلم المنارة المربعة في الجنوب الغربي من ساحة المسجد؛ صعد إلى القمة. في نهاية السلم، التقط أنفاسه هنيهة، ثم صدع بالنداء: "الله أكبر، الله أكبر!" توزعت أصداء الأذان في أرجاء المدينة التي كانت تقيل في سكون، تحت وطأة الشمس الصحراوية.. بدأ الناس يتوافدون واجتمع في وقت قصير جمع كبير من الكهول والشيوخ والشباب، أحرار وعبيد.. انتظموا خلف الإمام، في صفوف موازية للحائط الشرقي...

بعد سنوات أسس ازْبَاغْرَ مدرسة في المسجد.. أصبحت رفيقه طيلة وقت الدروس.. أهيئ وضوأه، أنفض سجادته، أرص الكتب وأقيد الأطفال حتى يحفظوا دروسهم.. أهيئ المجمرة زمن الشتاء للتدفئة وأدلك له جسده بين الدرس والدرس إذا كان متعبا... أتقنت اللغة العربية والنحو

وأصبحت أحفظ القرآن، والتفسير.. مع الزمن، أصبحت مدرسة ازْبَاغْرَ مركز إشعاع في إفريقيا وحتى بلاد الأندلس... لم تفتني مطلقا أي مناظرة من المناظرات اليومية بين الطلاب حول الرؤية والمعرفة الكاملة بالله يوم القيامة، العدل والوعد والوعيد، حرية الإنسان، الشفاعة، كفر النعمة، خلق القرآن، الولاية والبراءة، القوة والعرض وعلاقتهما بالفعل، الأفعال الإنسانية وعلاقتها بالخلق الإلهي، الكفر الأكبر والكفر الأصغر وحكم أبناء المشركين، حكم المنافقين، مسألة دلائل النبوءة ومسألة الوحي والكرامة... إلخ. لم يعد لكل هذه المسائل سر بالنسبة لي...

في أحد الأيام، حينما كنت أدلي سطلي، فاجأني صوت ارتطامه بحجر.. نظرت داخل البئر، لم أر ماء، إنما رأيت السطل متكئا على صخرة يابسة.. ركضت مسرعا أبلغ زعيم الخول...

ـ يابسة ؟! إذا كنت كاذبا سأعاقبك!!

ذهب معي إلى البئر ينظر في قعرها.

ـ لا قطرة ماء على الإطلاق.. هذا غريب!! يا للكارثة !! خذ السطل واذهب إلى المسجد، قد يوجد ماء هناك..

عند صلاة العصر، كان الخبر في كل الأفواه: " يبست الأحساء!!" فقال الإمام:

ـ استغفروا الله، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾.

بعد الصلاة بقي الناس في أماكنهم، متسمرين من هول المفاجأة.. وقف الإمام وقال: "أدعوكم غدا ضحى، إلى الهضبة البيضاء لصلاة الاستسقاء!".

جرجوا مع الإمام متواضعين متضرعين، مُظهرين التذلل والحاجة لله تعالى وأخرجوا معهم الدواب والشيوخ والكبار والصغار والأطفال.. كانوا يسيرون ببطء، مقوسة ظهورهم، يتمتمون بالأدعية.. وعلى ظهر الهضبة البيضاء، اصطفوا خلف الإمام، الذي كبر تكبيرة الإحرام وكبر سبعاً بعدها، ثم استفتح ثم قرأ:

- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين. ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ ﴿أ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؛ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ

يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم ركع، ثم رفع، ثم سجد سجدتين، ثم قام. لما اعتدل كبر ست تكبيرات ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آمين. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

ثم سلم عن يمينه حتى رأيت بياض خده الأيمن، رافعا صوته بالسلام: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ثم عن يساره حتى رأيت بياض خده الأيسر: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". بعد الركعتين، استدار بوجهه إلى المصلين وخطبهم خطبة يعظهم فيها ويذكرهم ويحذرهم من المعاصي لأنها تسبب القحط وتحبس المطر، وحذرهم من أكل أموال الناس بالباطل، والظلم وحثهم على التوبة والاستغفار وقرأ عليهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ذكرهم بذنوبهم ودعا إلى التوبة النصوح وطلب العفو من الله. ثم رفع يديه يدعو ربه ويسأله الغوث، ورفع الناس أيديهم: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، لَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، هَنِيئًا مَرِيئًا، مَرِيعًا غَدَقًا، مُجَلِّلًا عَامًّا، طَبَقًا، سَحًّا، دَائِمًا. اللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّ بِالْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَالْبَهَائِمِ وَالْخَلْقِ مِنَ اللَّأْوَاءِ وَالْجَهْدِ وَالضَّنْكِ مَا لَا نَشْكُوه

إِلَّا إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ أَنْبِتْ لَنَا الزَّرْعَ، وَأَدِرَّ لَنَا الضَّرْعَ، وَاسْقِنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبِتْ لَنَا مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ. اللَّهُمَّ ارْفَعْ عَنَّا الْجَهْدَ وَالْجُوعَ وَالْعُرْيَ، وَاكْشِفْ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يَكْشِفُهُ غَيْرُكَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا فَأَرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَارًا. اللهمَّ اجْعَلنا من عبادك الذاكرين الشاكرين، المُتفكِّرين في آلائك، الشاكرين لنَعمائك".

ثم استقبل القبلة وحول عمامته من منكبه الأيسر إلى الأيمن، تفاؤلا بأن الله يحوّل القحط إلى الخصب والشدة إلى الرخاء. فعل كذلك المصلون الذين ظلوا جالسين.. ثم رفع يديه وأكمل دعاءه بينه وبين ربه، والناس كذلك رافعين أيدهم يدعون معه بينهم وبين أنفسهم. عندئذ وقف أبو الهامة:

ـ أنا أيضا أدعوكم إلى الرجوع إلى جادة الصواب، حتى بعد فوات الأوان.. هذه الأرض برزخ تُرك زمنا طويلا للفوضى والطغيان! لا تحسبون هذه المدينة إلا جنة للمتاجرة بالذهب والعبيد.. بنيتم المذاوب الضخمة لتصفية وصياغة الذهب والنحاس وصناعة الزجاج والرصاص.. وحولتم المياه والغابات إلى بخار ودخان.. استهلكتم الماء والحطب بإسراف ودون أي تقدير للعواقب.. أنتم المسؤولون عن هبوط المياه الجوفية ويبس الآبار، وقريبا ستجعلون الحياة مستحيلة في هذه المدينة! الصَّنْهَاجِيُّون على حق في محاولتهم تحويل طرق القوافل عن أَوْدَافُوسْتْ، لأنكم حولتم هذه المدينة إلى حيوان طفيلي أخل بنظام توازن هذه المنطقة! نعم لهم الحق أصحاب ابن ياسين، هؤلاء الذين تخافونهم، لأنهم سيضعون حدا لحياتكم الفاحشة ويحطمون آلاتكم الموسيقية ويحرمون عليكم الخمور وشواء الكلاب! لا يهمكم في الحياة سوى الأكل والتمتع بالنساء، لا يهمكم شيء آخر! تعلنون إسلامكم وتسترقّون في نفس الوقت آلاف المسلمين! الآن ارجعوا إلى دياركم، وليحفر لكم عبيدكم آبارا أعمق من هذه التي جفت، قد تجدون الماء، لكن ذلك لن يكون إلا متاعا مؤقتا.. بإمكانكم أن تواصلوا العيش هنا سنين، لكن سيأتي اليوم الذي

يضع حدا لجنونكم، سيأتي اليوم الذي تفنى فيه أمتكم وتخرب مدينتكم وتصيرون نسيا منسيا!!

4
اللِّيّنْ

في هذه الفترة الصعبة، تعرفت على فَالَه، أمة بربرية فاتنة، تستقي من آبار المسجد.. كانت معتدلة، عيناها صافيتان كسماء غسلها المطر. كنا نلتقي كل ليلة في دار مهجورة في حي الصناع، على شارع منعزل تصل إليه أصداء المدينة. في أسحار بعض الليالي، عندما يسمع عويل الرياح في الجبل، وتكون الحجارة تتفلق من البرد، كنا نوقد نارا صغيرة في المواقد القديمة، فتبدأ ظلال غريبة متراقصة تتسلق الحيطان، وتمتلئ الدار بأرواح سكانها الأقدمين.. كانت عواصف الرياح تنقل إلى آذاننا شظايا من أصوات المدينة: نغمة موسيقية طائشة منسلخة من إطارها، تكبيرة يتيمة من أذان... أحيانا نتجول في الشوارع غير المرصوفة، نتمتع بلطافة وهدوء الليل.. وإذا رغبنا في اللقاء نهارا، نتواعد كهفا في سفح الهضبة، يختبئ مدخله خلف حجارة ضخام.. نلبث فيه أحيانا حتى هبوط الظلام.. من هذا الموقع المرتفع كانت فاله تمارس هوايتها في مراقبة القوافل الطويلة، المغادرة أو القادمة، وهي تتهادى في

بطء رتيب.. أما أنا فقد كنت أكره هذا المنظر؛ وعوضا عنه كنت أهيم في تقاطيع وجهها المتناسق وفي شعرها الأشقر، وأقرأ على وجهها وحي أحلامي المذهلة...

طلبت مني مرة أن أحضر قبل الوقت المعتاد. وعندما أرسلني زعيم الخول استقي من المسجد، تركت السطل عند البئر وركضت لأصل إليها.. صعدت الهضبة قفزا بين الحجارة ووصلت الغار أتصبب عرقا، أزفر وأشهق.. كانت هي في الظل البارد، وجهها متهلل.. عندما استرجعت أنفاسي راحت تكلمني بهدوء.. أقرت لي أنها منذ زمن كان لها دور ثابت في تحضير ثورة العبيد.

ـ تصور، نحن موجودون في كل دار بالعشرات، وهناك تجار في حوزة كل منهم أكثر من ألف عبد! باستطاعتنا الاستيلاء على المدينة وطردهم منها.. ومما يسهل ذلك الآن، أن الكثير من الأغنياء يفكرون بالهجرة إلى غانا، هربا من زحف المرابطين. ابن يَاسِينْ وصَنْهَاجَتُه استولوا على سِجِلْمَاسَه والقوافل القادمة من هناك تتحدث عن هجوم وشيك على أَوْدَاقُوسْتْ.. نحن نحتاجك، قالوا عنك إنك أصبحت فقيها كبيرا! لابد أن تعيننا لكي نثبت أن الدين يدعم قضيتنا.. لن أراك الليلة، ستلتقي أنت ومَعْطَلَّ في حي الصناع.. مَعْطَلَّ هو زعيم ثورتنا، لقد أريته الدار المهجورة.. سيكون في انتظارك بعد صلاة العشاء.

قبل أن تخرج، أخذت بيدي وقالت لي بمنتهى البساطة، كأن كلامها لا تترتب عليه أية عواقب:

ـ سنكون ثلاثة قريبا؛ أنا حامل، أنتظر مولودا لك! إذا كان ذكرا فسنسميه مَعْطَلَّ.

وعندما لم أجد عبارة مناسبة لجوابها أضافت: "لا تنس موعدك مع مَعْطَلِيَّ هذا المساء". خرجت من الكهف تتلكأ، هابطة كالظبية الآمنة..

في المرة الأولى، جمعنا مَعْطَلِيَّ في حائط مربع، تحت ضوء القمر. كان عددنا عشرين، افتتح النقاش:

ـ ... يجب أن نعرف إن كان الإسلام يبيح العبودية، وتحت أي شروط، وهل يمكن لمسلم أن يستعبد أخاه المسلم؟ يجب أن نحدد الوقت الذي ستكون فيه ثورتنا مستوفية مبرراتها الإسلامية. وفي حالة ما إذا كانت الثورة مشروعة، هل يجوز لنا أن نقتل عدوا مسلما؟

تكلم متدخلون عبروا عن مواقف متباينة، ودعم كل منهم وجهة نظره بالقرآن والأحاديث النبوية وآثار السلف:

ـ من واجبنا أن نستكمل الاستعدادات المادية للثورة قبل أن نبحث عن المبررات الدينية! نحن ليست لدينا أسلحة، وإذا بدأنا الثورة الآن سنقمع ونغرق في دمائنا...

ـ إذا لا يحق لنا أن نثور لأن ذلك سيكون قتلا للنفس وإلقاء بها للتهلكة، وهو ذنب! يقول الله عز وجل: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه...

ـ يبدو أنك نسيت بقية الحديث: "وذلك أضعف الإيمان"!

ـ لما هذا الجدل الفقهي؟ نحن عبيد، والعقل الطبيعي يبرر ثورتنا.. إن في هذا البرزخ مصادرات للحرية، وفيه قوانين تسمح بأن يعامل الناس كأشياء وليس كبشر، فيه العبودية! ومن موقف مطلق، لا يمكن ممارسة أي ضغط ضد أي إنسان! لأن كل إنسان حر في ذاته وهو ذات حرة،

يستطيع أن يؤكد حريته تجاه الضرورة، وأن يتنكر لكل ما يتعلق بواقعه الحاضر، هكذا يكون القهر والتمرد...

ـ يكفي! أوقفوا هذا الملحد!

ـ شيطان!

ـ نجس!

ـ خنزير مشرك!

ـ دهري!

ـ كفى! كفى! ما هكذا يكون الحوار، لا تتكلموا جميعا في وقت واحد، لينتظر كل منكم دوره! أسحب منك الكلمة، دع الآخرين يجدون فرصتهم في الكلام، ستجد فرصة أخرى... نعم، أنت!

ـ أنا أرى أنه لابد لنا أولا من أن نحدد الأصدقاء والأعداء! انظروا مثلا إلى العبيد الأغنياء الذين لا يؤدون الزكاة، هل يمكن اعتبارهم أصدقاء؟ وهؤلاء الذين يبيعون الجواري قبل استبرائهن؟ وأطفال أسيادنا هل نعتبرهم أصدقاء أم أعداء؟...

ـ فيما يخص أطفال الأسياد سبق لثعلبة أن أعطى الجواب: لا يمكننا اعتبارهم أصدقاء ولا أعداء، لابد أن ندعوهم للحق عندما يرشدون. فإذا قبلوه، فهم أصدقاء، وإذا رفضوه فهم أعداء. أما حكم بيع الجواري غير المستبرآت، فهو واضح: الذين يفعلون ذلك هم من الذين قال الله فيهم : ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ إن على ولي الأمر أن ينفي من يرتكب جريمة كهذه.. ولا يحق لولي الأمر أن يصدق البائع الذي يزعم أنه لم يدخل بالجارية. الاستبراء واجب بالنسبة لكل أمة في كنف سيدها حتى ولو ادعى أنه لم يمسها وحتى لو كانت شديدة الدمامة.. يجب أن تودع المباعة عند رجل أمين، حتى تحيض...

ـ بالنسبة لي، كل تاجر عبيد إماء أو ذكورا، هو عدو حتى ولو طبق الفتاوي الفقهية.. مرة أخرى، المسألة مسألة حق طبيعي! لابد أن نلغي واقعنا الحاضر، إذا اردنا أن نثبت أنفسنا ونبرهن على أننا رجال أحرار.. بما أنه من الضروري للبشر أن يصارع بعضهم البعض ويحاول كل طرف أن يبرز ويؤكد وجوده، فالذين اختاروا الحياة بدلا من الحرية يكونون عاجزين عن الفعل بذواتهم وعاجزين عن إثبات استقلاليتهم، ويدخلون في العبودية.. نحن هنا الليلة لأننا قررنا أن نثور وأن نموت من أجل الحرية!...

ـ يا إلهي! اللهم اشهد أني بريء من هذا الملحد!!

ـ نعم، نرفض خطاب هذا الكافر!!

ـ نفضل الموت عبيدا مؤمنين، على أن نحيا أحرارا مشركين!

لم يوقف مَعْطَلِيَّ هذا الجدال إلا قبيل الفجر.. أبلغ الجماعة أن الحوار سيواصل الليلة التالية في نفس المكان..

مضى شهر من الاجتماعات المتواصلة، دون أن نتقدم .. أصبحنا بضع طوائف لكل طائفة زعيم.. كان بيننا من يرون أن الثورة لم يحن وقتها بعد، وأنه يجب أولا، محاولة إقناع الأسياد بتطبيق نصوص الشريعة؛ وثمة من يرى أن الثورة ممكنة، بشرط احترام تعاليم الدين.. وهناك المطالبون بتحديد الأصدقاء والأعداء؛ ودعاة "العبودية الشرعية" ودعاة "الموت في سبيل الحرية"...

صارحت فاله بالإحباط الذي أصابني:

ـ لا يُرجى لهؤلاء العبيد نجاح بسبب الانقسامات...

لكنها أصرت على الاحتفاظ بتفاؤلها الأول كاملا غير منقوص:

ـ لابد أن ننجح! سترى، اصبر قليلا سيظهر حل جماعي، أنا متأكدة من ذلك!

ثم عرضت على أن نزور جدتها، مؤكدة أن الزيارة سترفع من معنوياتي...

ـ جدتي كاهنة، ستنبئك عن خبايا مستقبلك!

كانت الجدة جالسة في ركن من الحائط، أمام خص من الخرق البالية.. أخذت فاله يدي وبسطتها تحت عينيها:

ـ جدتي! هذا ڤارا، صديقي.. جئناك لكي تقرئي له مستقبله...

رفعت نحوي جبهة تغطيها الغضون، ثم هوت برأسها تنظر في يدي.. وفجأة أزاحت يدي جانبا في حركة مرعوبة، واستدارت لتوليني ظهرها!

ـ جدتي! جدتي! ما الحكاية؟ لماذا لا تقرئين كف صديقي؟

أجابتها الكاهنة بحركة من يدها، كأنما تريد منا أن ندعها وشأنها ونبتعد عنها.. لكن فاله واصلت الإلحاح.. أخيرا قالت الجدة بصوت مرتجف:

ـ يظهر لي، يا بنتي، أن الآلهة سقطوا على رؤوسهم، أو لعلهم سئموا أسئلتي، فقرروا أن يصيبوني بالجنون...

ـ جدتي! أنت لم تأخذي الوقت الكافي لرؤية كف ڤارا...

ـ لم احتج لوقت! كل حياته ظهرت لي دفعة واحدة، في لمح البصر!

ـ إيه؟

ـ إنه أمر غريب! لم أر في حياتي عمرا بهذا الطول وهذا الشقاء!

ـ جدتي!

ـ لا، اسكتي! بما أنك ملحاحة سيتكلم الغيب: إن المدينة مليئة كلها بدخان البخور، والأذانات الممزوجة بالأنين.. هذا الرجل سيشرب من عين الخلود، لكن سيقتله ابنه!

ـ هذه العجوز خرفة، مجنونة!

قلتها مخاطبا فاله وأنا أضع سبابتي في صدغي.

ـ ثارا! تستطيع أن تسخر مني ومن كهانتي، لكن لم يسبق لأحد قبلك أن سحقته الأقدار كما ستسحقك!

ـ جدتي! جدتي! ما معنى هذا؟ أناشدك أن تجيبيني!!

ـ ليس لدي ما أضيفه يا بنتي! تكلم الغيب، وانتهى!

في إحدى الليالي، وبعد أن سئم من الدوران في الجدال العقيم، قرر مَعْطَلٌّ أن يقترع على الآراء المختلفة.. ونجح دعاة محاولة إقناع الأسياد، بأصوات قليلة.. اتهمت الأقلية مَعْطَلٌّ بأنه ساعد الطرف الآخر من خلال إدارته للحوار:

ـ هذا ليس عادلا! كان ينبغي أن تعطي الوقت الكافي للآراء لتتلاقح مع بعضها، ويتمكن البعض من إقناع البعض...

كانت ليلة محاق مظلمة، وكنا قد أوقدنا نارا للاستضاءة.. كنا نعكف على كتابة بياننا حسب رأي الأكثرية.. فجأة تقافز علينا رجال يطلقون صيحات مرعبة، بأيديهم الهراوي والسياط الغلاظ.. أحاطوا بنا من كل الجهات، رأيت بشكل خاطف، على ضوء النار، وجه زعيم خول ازْبَاغْرَ الأعور؛ خيل إلي أن وجهه، بصورة ما، وجه أفعى! أحسست بضربة قوية على

عنقي وأطلقت صرخة لم تكتمل، رأيت آلاف النجوم المسرعة، ولم أعد أعي شيئا... انتبهت لنفسي وأنا ملقى في غار الكنيف! كانوا يلقون إلي في فترات متباعدة بشيء يؤكل، لا أميز طبيعته، وينزلون لي شرابا من غسيل آلات المطبخ..

أحسست مرة بشيء يتحرك على منكبي الأيمن، لمسته فإذا هو حبل.. سمعت صوت الأعور يأمرني بالصعود.. عقدت الحبل في حزامي وأمسكته بيدي الخاملتين.. أخرجوني من غار الكنيف وألقوا بي في زاوية من المطبخ.. بقيت أياما ورأسي مثبت في ربوة من الرماد، لا أستطيع حراكا.. كان الإماء يعطينني الأكل والشراب دون أن يكلمنني. خلال أيام العذاب هذه لم يكلمني سوى شخص واحد، هو أبو الهامة.. جاءني في المطبخ المكشوف وأنا أتوسد إحدى الأثافي، بعد أن بردت؛ النجوم محتشدة في عنينيّ، وأنا سهران، ألعن الدهر: «لما ذا الشر؟ ما الذي قسم البشر إلى عبيد وأسياد؟ بأية حالة استطاع أبي، الذي أنجبني ورباني وحماني، أن يلقي بي في أشداق الموت، ويبادلني بقطعة ملح؟» كانت هذه الأسئلة تهاجم ذهني كحشد من خفافيش الظلام، عندما سمعت صوت أبي الهامة:

ـ في القدم، كان الخير مهيمنا على العالم وحده، وكان في ضجر. وفي يوم من الأيام، فكر في ذاته، تساءل عما يمكن أن يكون نقيضه.. فكان أن تجسدت تلك الفكرة، وتكون الشر.. ومنذ ذلك الوقت، مازالت مملكة الشر تتسع، ومملكة الخير تنتقص...

ـ والبشر؟ قلتها مقاطعا لكلامه..

ـ البشر؟ هم آخر اختراعات الشر، أخطر حيله! انظر مثلا هذا الذي وشى بكم...

ـ هل وشى بنا أحد؟

ـ وشى بكم أحد العبيد الذين لم يحصلوا على الأكثرية.

ـ ما عاد يهمني شيء! لكم أتمنى أن أعيش في زمن آخر يكون البشر فيه أفضل!

ـ قد يتحقق حلمك هذا يوما ما! إذا كنت ترفض قدرك، فاهرب من البشر، والجأ إلى الصحراء، وانتظر أمر ربك!

أشحت ببصري عن السماء، وأخذت أحدق في هذا القزم الكبير الهامة الذي يكلمني: «عجيبة هذه الدمامة الشديدة المنفرة! لكن من كلامه ونظراته يستطيع المرء أن يكتشف، خلف هذا القناع المقرف، كائنا في منتهى الجمال!! »

5
الْبَرَّانِي

بقيت في المطبخ إلى أن كان يوم أخرجوني منه، وربطوني إلى ذنب جمل، وغادرت أَوْدَاقُوسْتْ قبيل الفجر، في قافلة سِجِلْمَاسَه. عندما طلعت الشمس كانت هضبة أَوْدَاقُوسْتْ البيضاء قد توارت جنوبا، واطمأن مسير القافلة.. كنا نمر بغابة من أشجار الصمغ، تحتل سهلا طويلا بين كثيبين يمتدان بطوله من الجنوب إلى الشمال.. كانت برودة الأرض الملساء تحت قدمي الحافيتين أحسها لذيذة في البداية لكنني، بعد حين، أصبحت أحس الألم من قدمي اللتين تآكلت بشرتهما بفعل حت الحصى.. بعد ساعة تقريبا من السير، لم أعد أطيق المشي من شدة الألم.. من حسن الحظ أن الجمل الذي يقودني كان غير مذلل، كان يلبط ويرفس، مما يضطر القافلة للتوقف لإصلاح وضع حمولته.. كانت لحظة التوقف هذه فترة استراحة لا تعوض.

بعد أيام من السير كانت القافلة تجانب سلسلة جبلية تلونها كدرة مغرة، وتمكنت من عبور السلسلة من مكان تجمعت فيه الرمال.. كانت الإبل متسلسلة، والعبيد يمشون إلى جانبها لكيلا تدهسهم.. أهل القافلة يمشون أمامها وخلفها وعلى الجانبين، يراقبون استقامة الأحمال.. الأرض الرملية اللينة تبتلع أخفاف الجمال المثقلة.. مقطع الجبل أدى إلى منطقة حجرية امتدت مسافة بعيدة، قبل أن تزحف عليها الرمال الناعمة، باستثناء نتوءات صخرية متناثرة كأنها قزع من السحب الداكنة، مبعثرة في سماء الرمال الصافية... مراحل القافلة كانت تتوالى، مرحلة بعد الأخرى، في معاناة متكررة رتيبة: نُحمِّل الجمال وننطلق مع الفجر، إلى أن تتعامد الشمس فوق رؤوسنا في قيظ شديد. عندما يأكل الضوء ظلالنا نعرس، نحط الأحمال، نقيد الجمال ونبني الأخبية الخفيفة.. وتفتح أوعية الزاد التي تضم أيضا الحطب وعتاد ترقيع القرب والجرب، من أشفى ومخيط وسيور خاصة لهذا الغرض. في هجير القيلولة، ينطوي كل على نفسه في سكون إجباري فظيع، كأننا فقاعات طفت فجأة على جسد الأرض الملتهب. وعندما تميل الشمس إلى الغرب، وتهبط الحرارة قليلا، نرحل ونواصل السير إلى أن نقضي الثلث الأول من الليل.. نعرس حتى الفجر، بغض النظر عن نوع المكان.. أصبحت أكثر انشراحا في داخلي، بسبب معايشتي الدائمة للسماء بلا حواجز؛ أصبحت لي أبعاد كونية كالكواكب. كنت أنظر إلى الحصى اللامع كأنه هباء من نجوم ذُر على الأرض. خلال المسير المتواتر الدؤوب، كانت الرمال تظهر بجميع الأشكال: موج، تلال، كثبان.. مساحات لانهائية من الحصى الأبيض والأحمر والأصفر؛ بحر من الرمال المستطيلة، المنبسطة، المتموجة، المستقرة، المكومة، أو المبعثرة، في كثبان تعلوها ذوائب رملية متحركة..

كانت الشمس قد تربعت على الكثبان العالية، لكن الرياح لم تنطلق بعد.. فقط، على الذوائب العالية، ثمة أنفاس متراخية تحرك أعراف

الكثبان، أمواج رقيقة من الرمال، كأنها دخان.. ظلال الضحى الداكنة المنبطحة على الرمل، تتقلص، زاحفة إلى الشرق.. كانت ثمة جماعة من الظباء راتعة في إحدى الوهاد الغائرة.. رفعت رؤوسها دفعة واحدة، لما أطلت القافلة من الكثيب، ثم ولت هاربة.. كان ثمة غياض تتخلل أشجارها فجوات، تتشابك بينها مصاريع الحنظل الذي تناثر بطيخه كالأكر.. أشجار السمر الظمأى تشبه الأطباق المنصوبة؛ بعض جذوعها معوجة، خالية من الأغصان، والبشام منبطح على الأرض، يمد أغصانه في كل الاتجاهات، تحاذيه سلاسل من العشر بأوراقه العريضة الملبنة، وأعاليطه المعبأة بالكتان الأبيض. الأرض نقية، نظيفة، لها نفس صفاء السماء المنعكسة في العيون.

في المرحلة الموالية، عندما لم يعد القيظ يطاق، حطت القافلة في وهدة غائرة أخرى، يتضايق عليها كثيبان عظيمان، على ذؤابتيهما ألسنة رقيقة من الحصى المتحرك، كأنها أفاعي صحراوية.. لحقت بنا ظلالنا التي ظلت تطاردنا، محتمية من ألسنة الشمس.. قيدوا الجمال وتركوها ترعى الأرطي الذي سيكون قليلا أو منعدما في المراحل القادمة.. لم يعد العبيد مكتوفين، لأن إمكانية الهروب انعدمت تماما في هذه الصحراء المتيهة، المعطشة.. اجتمع الرجال تحت ظلال أشجار السمر؛ جيء لهم بماء مغلي صبوه على مسحوق القديد وأكلوا.. كان العبيد يدلكون أجساد أسيادهم المتكئين على الرمل الناعم.. ثمة تاجر سقط من فوق جمله، لما كانت القافلة سائرة.. أمر عبده أن يحفر له لحدا في الشمس الحارقة.. دخل في اللحد وهال عليه العبد التراب الساخن.. لم يبق إلا رأسه.. رياح إِريفِ الحارقة كانت تلطم الوجوه، تشويها، وتيبس الشفاه حتى تتكسر وتسيل منها الدماء.. بقيت جالسا في الشمس، أحثو على جناحي التراب الحامي.. ربما يعجل ذلك من تيبس الجروح التي تركها الوثاق على ساعدي.. القيظ المخيم كأنما ضرب رواقا من نسج اللهب حول الأشياء وحبسها في

ظلالها الصغيرة جدا.. بركت الجمال وشرّعت أعناقها نحو الشمس، كما علمتها غريزتها القديمة.. «عجيب هذا العالم الذي عرف جميع أنواع الكائنات ولم يبق فيه غير هؤلاء البشر وجمالهم! لا يمكن أن يكون الإنسان، هذا الكائن الفاسد الظالم، أفضل من كل تلك الأمم التي انقرضت وبقي هو! كيف أرادت القدرة أن يكون الأمر كذلك؟...» مكثت طويلا أقلب ساعدي في الأرض الحامية وأغمض عيني، لكن ذهني لم يهتد إلى أي حكمة من وراء بقاء الإنسان بعد أمم انقرضت! «هذه الرمال النقية، السابحة في الضوء، كان يمكن أن تكون ذات جمال مطلق، لو لم تكن ملوثة بالبشر!!» ترددت أصداء أذان الظهر بين الكثبان الموحشة.. تيمّموا وتوجهوا نحو القبلة، مصطفين خلف أحدهم.. صليت معهم... «لماذا المساواة في الصلاة والقهر في الحياة؟ لماذا يكون حظ الناس من الدين مظاهره الشكلية، ويتجاهلون الجوهر الفاضل، ويعيشون في الظلم والجور؟»...

أتوا بالجمال وأناخوها بين الأحمال.. انتهى التحميل في لحظات.. أوقفوها وانطلقت القافلة. أخذت الجمال وضعها التتابعي المعتاد وبقي الرجال يتحركون في جوانبها كالنحل.. يبدو أن العبيد الذين نزع عنهم الوثاق كانوا سعداء!! أما أنا فكنت أجتر يأسي.. ألمي لم يكن جسديا، من جراح الوثاق، ووجع الأقدام الحافية، كان ألمي بسبب إحساسي بأني إنسان، من شعوري بالانتماء إلى الجنس البشري!! كانت القافلة تصارع بعناد وعثاء الرمال التي تسيخ فيها أخفاف الجمال.. الرياح الشمالية الشرقية جعلت الكثبان تتدفق بانحدارات شديدة نحو الجنوب الغربي.. رأيت شجرة طلح تدفق عليها الكثيب فابتلعها وبقيت منها أغصان خارجة من الرمل كأنها يدا غريق يطلب النجدة، قبل أن يبتلعه الموج نهائيا.. كانت هذه المنطقة مسرحا لأغنام الغزلان.. وقد استطاع العبيد الإمساك

ببعض أخشافها للعشاء.. أودعوها بين الأحمال.. كانت تصدر عنها ضوضاء فظيعة.

أسرعت الشمس نحو الغروب، أسلمت الجُنُوبَ الشرقية للكثبان إلى الظلام الذي بدأ يغزو الأرض.. كانت الظلال تلفظ أنفاسها الأخيرة إلى الشرق، متعبة من وعث الرمل. ظهرت الشمس عارية من ثوبها الأبيض؛ عريها كلون الرمال التي لم تبتلعها الظلمة بعد.. ظهر في الأفق الشرقي البعيد، على رأس كثيب، رجلان من انْمَادِ، كأنهما شبحان، يصحبهما قطيع من كلاب الصيد.. أسرعا نحو القافلة ، يهبطان وهدة ويصعدان مرتفعا.. كانا عاريين ككلابهما، منهكين من التعب والعطش.. أسرع أحد رجال القافلة ينزع علاقة قدح من فوق أحد الجمال.. حل شناق إحدى القرب التي بقيت فيها صبابة ماء.. ملأ القدح وقدمه للنَّمَادِي.. كرع الرجلان وكلابهما معا في القدح، كل ذلك دون أن تتوقف القافلة، التي كانت تهبط وتعلو في أرض رملية وعثاء. كان العبيد يحدون للجمال المثقلة:

ـ أياية، أياية، أيايه!

الأمواج الشديدة العلو والانحدار، تتحرك على قممها ألسنة من الرمال المتحركة. كان يتحتم على القافلة أن تفتش بعناية بين الكثبان الرملية المنحدرة المنبثة في فوضى كاملة، عن منقطعات يمكن السير عبرها..

توقفت القافلة بعد الثلث الأول من الليل.. أوقدنا عدة نيران للتدفئة وشي اللحم.. كانت وجوه أهل القافلة، وهم ينهشون اللحم، تبدو في مظهر مخيف؛ ومن حولهم كان الظلام قد سرق الأرض.. لم يعد موجودا غير النار والناس من حولها. لكني كنت أحس أن كائنات صحراوية تترصد

خلف دائرة ضوء النار: يرابيع، فئران، ونمل فضي؛ جعلان، زواحف، أشباح، وثعلب الصحراء السريع العدو، الشديد المهارة في اختطاف اللحم والذي يترصد القوافل دائما.. استسلمت القافلة لهدوء الليل.. عدد لامتناه من النجوم اللامعة والخافتة، القريبة والبعيدة، رصعت قبة السماء.. برج التبانة فرش بساطه الضوئي فقسم السماء نصفين.. فجأة رفعت كلاب انْمَادِ رؤوسها وأطلقت عواء متواصلا.. وما لبث أن ظهر في الأفق الغربي ضوء غير مألوف عم الأرجاء، ظهر إثره مذنب يجر وراءه ضفائر من الضوء البلوري الشديد اللمعان، يزداد شراسة مع صعود المذنب في السماء.. اختفت النجوم تماما.. بدت الأرض كأنما طلعت عليها آلاف الشموس.. أخذ المذنب يميل مبتعدا نحو الشرق، وذيوله الضوئية تخفت تدريجيا.. ثم رجع الليل إلى الأرض.. عادت السماء إلى سكونها وخيم على المعرس سكون كأنه الموت.. كانت الوجوه مرعوبة والعيون جاحظة والأفواه فاغرة، لاهثة.. أخيرا بدأ بعضهم يسترجع قدرته على الكلام:

ـ هذه آية يجب اعتبارها والتفكر فيها!

ـ إنه انتقام من الله، علامة من علامات الساعة!

ـ هذه السنة 455 بعد الهجرة ستكون نهاية العالم!

عندما ظهر المذنب أحسست بي كأنما تخلصت من الجاذبية! أصبحت غريبا على الأرض.. أحدث المذنب انقلابا في كياني.. لكن إحساسي بآلامي الجسدية والمعنوية ظل قائما، بل ازداد.. أمضيت بقية الليل واقفا، عيناي تحملقان وذهني غارق في استجلاء مصيري..

كان تحميل الجمال قد انتهى ووقف بعضها، عندما انقض أحد العبيد على سيده؛ راح يخنقه بعنف، حتى خرجت عيناه من محجريهما..

يبدو أن العبد أصابه مس من جنون.. لم يتمكنوا من الفصل بينهما؛ قوة العبد أصبحت خارقة! يبدو أنها تجمعت كلها في يديه القابضتين على عنق سيده، الذي أصبح وجهه قرطاسا أبيض ولسانه خارجا، مدلى من شدقه الأيسر كسلى الأتان!! أخذ أحدهم قدوما وهوى بها على رأس العبد ففلقه نصفين ودوت صيحة مرعبة في الأرجاء.. هوت الجثة على الأرض ويداها مغروزتان في عنق الرجل، الذي هوى ساقطا معها.. تبين أنهما جثتان تقبض إحداهما على عنق الأخرى.. لم تنفك القبضة إلا بتكسير أصابع جثة العبد واحدا بعد واحد. دماغه الأصفر كان يسيل متباطئا على الرمل الذي ألزقه الدم. غسّلوا الضحية بحصته وحصة قاتله من الماء.. ثم أدوا الصلاة على الجنازة: اصطفوا خلف تَالُوثُانْ الذي كبر تكبيرته الأولى دون أذان أو إقامة. استفتح وقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، ثم كبر الثانية دون ركوع أو سجود وصلى على النبي: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ". ثم كبر الثالثة دون ركوع أو سجود واجتهد في الدعاء للميت: "اللهمّ أبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وأدخله الجنّة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النّار. اللهمّ عامله بما أنت أهله، ولا تعامله بما هو أهله. اللهمّ أجزه عن الإحسان إحساناً، وعن الإساءة عفواً وغفراناً. اللهمّ إن كان محسناً فزد من حسناته، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيّئاته. اللهمّ أدخله الجنّة من غير حساب، ولا سابقة عذاب. اللهمّ آنسه في وحدته، وفي وحشته، وفي غربته. اللهمّ أنزله منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين. اللهمّ أنزله منازل الصدّيقين، والشّهداء، والصّالحين، وحسن أولئك رفيقاً. اللهمّ اجعل قبره روضةً من رياض الجنّة، ولا تجعله حفرةً من حفر النّار. اللهمّ افسح له في قبره مدّ بصره، وافرش قبره من فراش الجنّة. اللهمّ املأ

قبره بالرّضى، والنّور، والفسحة، والسّرور. اللهم إنّ أَغَيْلاَسْ وَلْ آمَسْنَاوْ في ذمّتك، وحبل جوارك، فقِه من فتنة القبر، وعذاب النّار، وأنت أهل الوفاء والحقّ. فاغفر له، وارحمهُ، إنّك أنت الغفور الرّحيم. اللهم إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك، احتاج إلى رحمتك، وأنت غنيّ عن عذابه، إن كان مُحسناً فزده في حسناته، وإن كان مُسيئاً فتجاوز عنه. اللهمّ آته رحمتك ورضاك، وقهِ فتنة القبر وعذابه، وآته برحمتك الأمن من عذابك حتّى تبعثه إلى جنّتك يا أرحم الرّاحمين. اللهمّ انقله من مواطن الدّود، وضيق اللّحود، إلى جنّات الخلود. اللهمّ احمه تحت الأرض، واستره يوم العرض، ولا تخزه يوم يبعثون ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾. اللهمّ يمّن كتابه، ويسّر حسابه، وثقّل بالحسنات ميزانه، وثبّت على الصّراط أقدامه، وأسكنه في أعلى الجنّات، بجوار حبيبك ومصطفاك صلّى الله عليه وسلّم. اللهمّ ثبّته على القول الثّابت في الحياة الدّنيا، وفي الآخرة، ويوم يقوم الأشهاد. اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم إلى يوم الدّين". ثم كبر الرابعة دون ركوع أو سجود ودعا لجميع المسلمين أحياء وأمواتاً: "اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات". ثم سلم مرة واحدة على اليمين.

أمواج الرمال أخذت تصغر عما كانت من قبل.. أصبحت روابي حية بعدما كانت كثبان رملية ميتة.. تنحني وتدق وتكبر وتنقطع.. أصبح لجمالها بعد أنثوي.. نقاء الرمال يوحي بمعاني الطهارة والنبل.. الظلال المتباطئة تمنحها معاني الحزن والأبدية.. أما في المناطق الساكنة فقد كانت أشباه الكثبان واطئة، رقيقة ومستطيلة، كأنها هياكل عظيمة من البلور، نحتتها الشمس وتعاقب الرياح.. أشجار المرخ تنبئ عن دخول القافلة منطقة جديدة.. كانت السهول مرصعة بدوائر سوداء من بول النعام. كان القلق من العطش يتزايد كلما توغلت القافلة في المجابات

الكبرى .. وكان الماء يزداد سوادا ونتنا رغم جودة القرب المسلوقة بالدهن والقطران؛ لكن ذلك لا يمنع بعضهم من محاولة سرقة الماء ليلا.. كانوا يكشفون على بول كل واحد، حيث تبين درجة زرقة البول نسبة الماء فيه.. وكانوا يعرفون أن فلانا شرب أكثر من حصته عندما يكون بوله أزرق، فيحرمونه من حصته من الماء إلى حين..

في المعرسات الليلية، كنا نوقد نيرانا كبيرة للتدفئة، لا تخمد إلا قُبيل الفجر، عندما نكف عن إطعامها بالحطب.. ورغم البرد القارس، كان النوم يستولي علينا تحت وطأة التعب.. كنا ننام منطوين على أنفسنا، مشكلين دائرة حول الموقد.. في إحدى الليالي المظلمة الباردة، وكانت النار قد خمدت وتغطت جميراتها المتبقية بأردية سميكة من الرماد، أحسست بجسم صلب مبلل على جسدي العاري، وبقربي رجل متسارع الأنفاس، في لحظة من الدهش وهو يعانقني.. رفست بقدمي كرش سارق اللذة رفسة عنيفة، وبوثبة واحدة انفصلت مسافة عن الركب النيام.. أمضيت بقية الليلة منفردا على رأس ربوة، حذرا، بعيدا عن أي مصدر حرارة...

كانت الزهرة مازالت تشع بلمعانها البلوري، عندما أحسست يدا قوية تهزني.. سمعت سيدي يتلفظ بألفاظ الشتيمة، ويستحثني للقيام لإنجاز المهام المألوفة.. نزلت مهرولا مع منحدر الربوة... يا للتغير العجيب! أخمص قدمي لا يكاد يلامس الأرض، كأنني أسير على لجة! انحدرت مع مهوى الكثيب، أتزحلق على الرمال! الجمال كانت تنظر إلي مشدوهة بما ترى! أما البشر فقد أعماهم عنادهم وانسياقهم مع مألوف عاداتهم.. كنت أشعر قليلا ببرودة الرمل من أخمص قدمي.. كان الدخان يخرج من فمي مكونا سحابة صغيرة أمام وجهي. صفر انْمَادِ لكلابهم واندسوا في

موج الرمال مغربين.. أخذت الحطب وأوقدت النار.. شرعوا في صلاة الصبح.. حاولت بلا توفيق تمييز سارق اللذة؛ جميعهم كانوا خاشعين ولا يتصور أن بينهم من يمكن اتهامه بهذا النوع من الموبقات.. لكني كنت موقنا أن المذنب من بينهم.. عندما ذهبت لإحضار الجمال كدت أطأ على أفعى نائمة، ومن حولها آثار العصافير.. قبل طلوع الشمس، دخلت القافلة منطقة من السهول.. أحيانا تحفر الرياح بين كثبانها، فتكشف عن القشرة الأصلية للأرض.. الأماكن الصامدة في وجه الرياح، بقيت على شكل تلول صلبة مائلة للسواد.. الرمال في هذه المنطقة أدق من المألوف، شديدة البياض كرغوة اللبن.. أحيانا يكون لونها رماديا أو ورديا، أو أصفر ذهبيا.. في هذه المنطقة القصية، كانت الرياح قد دحرجت الكثبان، وكورتها في تجمعات منفصلة.. أحيانا تختفي الكثبان كليا، فلا يبقى غير التثنيات الصلبة الأصلية.. وقد يلاحظ وجود أجنة من الكثبان لفظتها الأرحام قبل اكتمال خلقها وألقت بها على الصعيد، كأنما هي ملصقة عليه مؤقتا..

في مرتفع الضحى توقفت القافلة في غيضة من شجر السرح ناعمة مخضرة تمتد شماريخها المحملة بالأوراق.. توقفوا لإعطاء الجمال فرصة التزود من السرح الذي سيكون هذا آخر عهد به.. الجمال تحبه كثيرا.. قطرة سحاب! كان الوقت ثقيلا، جو الأنواء.. في أعالي السماء سحابة داكنة في الوسط وأطرافها بيضاء، تمطر، لكن المطر يتبخر قبل أن يصل الأرض.. السحابة شحنت الجو بالكهرباء.. الجمال كأنما أصابها مس من جنون، لا تستقر على حال.. عجّلت القافلة رحيلها للإفلات من محيط طيف الزوبعة وجوه المكهرب.. دخلنا منطقة شاسعة، شديدة الاستواء، عارية تماما كوجه المرآة؛ حصاها أحمر، أكبر قليلا من الحصى العادي، يغطي كامل وجه الأرض كأنه بساط من حرير تهدهده

الرياح.. ثم بدأت تظهر مساحات طويلة من الرمال الرقيقة البيضاء، مجعدة ظهورها من جر أذيال الرياح، كأنها حصائر نمقتها الصوانع..

استمر سير القافلة تعلو وتهبط بين حفر وربى متقاربة، حولت القافلة إلى تنين رمال.. مد البصر لم يعد يتجاوز المسافة بين الربوتين؛ أحيانا تتصل الربوة بالأخرى فتحسبهما ربوة واحدة.. في الأصيل والصباح فقط تستطيع أن تميز الربى بمساعدة الظلال. السير في هذه التموجات التي لا حدود لها لا يولد التعب، لأن الأرض صلبة تحت الأقدام والارتفاع والانحدار كلاهما خفيف، لكنه رتيب وممل.. الأفق ينتقل خلف كل خط من خطوط مزرعة الرمال اللامتناهية.. العين لا يمكن أن تميز ما تهتدي به؛ المنظر واحد في جميع الاتجاهات.. القوافل تخشى هذه المنطقة، يقولون إنها وطن للجن.. ويقولون إن النجاة من التيه نادرة، خاصة إذا ما نشطت الرياح، وسوت بين الأرض والسماء في بحر لامع من الغبار لا يميز فيه بين الأشياء.. فقدت هويتي من طول التيه في هذا المحيط؛ لم أعد أعرف من أنا: «هل أنا الشاب القَنْفَاري الوثني الذي كان يعيش بسعادة في بلاد الذهب؟ أم أني العبد المسلم الذي يقطع المجابات الكبرى لا يدري إلى أين؟ أم أنا ذلك الكائن "المسكون" بعناصر كونية غريبة على الأرض، والذي يهيم بأكوان أخرى؟ قد لا أكون واحدا منهم بل الثلاثة معا...»

كانت فكرة تنضج في ذهني رويدا رويدا: «لن أرافقهم حتى سِجِلْمَاسَه! يجب الهرب في أول فرصة.. لكن كيف يمكنني الانفصال عن القافلة في هذه الصحراء الرهيبة؟» كنت ساهما في هذا التفكير، أسير مطأطأ الرأس، إلى أن تعثرت في جثة نبتة من الحلفاء نفر منها زوج من الظرابين، "سِيلَّالْ لَعْرَاقِيبْ"، أشهبان.. هاجمني أحد اللاحمين، ولم يصد

عني إلا بعد نجدة من عدة رجال راحوا يضربونه بعصيهم .. الآخر نهش عرقوب أحد الجمال.. فجفل ورفس، وقطع زمامه.. ركض رجلان بجانبه، "هُوكِي ! هُوكِي! أَكْ ! أَكْ! أكْ! كَرْ! كَرْ كَرْ!" كانا يحاولان الإمساك ببقية زمامه، والتربيت على يديه. كانت بنات النقا الفضية، "بُونَيْنَات"، تلوح لتختفي، تغوص كالْمُخْيِطْ في الأرض المكسوة بالحلفاء، لها سرعة البرق.. يسمونها بُونَيْنَاتْ لأن لديغها كما يزعمون إنما يئن أنة واحدة قبل أن يموت.

هبت سموم نارية أرغمتنا على التعريس في منتصف المرحلة. يبست القرب، تبخرت المياه منها بفعل السموم الجهنمية. لجأ أهل القافلة العطاش إلى الجمال. نحروا اثنين منها .. نزعوا كرشيهما وادخلوا في كل كرش إضمامة من الحشيش، عملوا منها مصفاة لعزل الماء عن الفرث.. ثقبوا الكرش من أسفلها فسال ما بداخلها من ماء. أصاب جميعنا جرعة من ذلك السائل النتن الذي أنقذ أهل القافلة من موت كان محققا. كان دليل القافلة يتلكم عن بئر يمكن الحلول بها إذا سرت القافلة ليلة كاملة.. لكن بقية يومنا ضاعت لأن العطش يمنعنا من مجرد التفكير في الرحيل قبل غروب الشمس. حفر العبيد جحورا وتوارى كل واحد في حفرته في انتظار الليل المنقذ. تحول الزمن في ذلك الأصيل الغادر إلى عدو ليس من مصادقته بد، يتحرك واقفا، تبتلعنا ساعته الرملية.

الكثبان الرملية الميتة المستطيلة، تفصل بينها سهول يسرح فيها البصر ولا يدرك لها نهاية.. مر قريبا منا قطيع من المها.. لم يفكر أحد في إزعاجه، كانت الظباء تنبش بأظلافها عن عروق الزّنّون.. وأقرب من ذلك كانت عصفورة تنبش عن مومياء جرادة... في الصحراء أصبح عندي حس شديد الدقة، ربما بسبب الخلاء، أو بتأثير المذنب.. كنت أرى

التفاصيل الدقيقة لكل شيء، كل حصاة، وأتابع التفاصيل الدرامية للعالم الصغير الذي ليس في متناول البشر العاديين.. كالملحمة الشرسة التي جرت بين الزنبور المتوحد وفريسته وذبابة العنتر والجمل: كان الزنبور قد فتك بفريسته.. فصل رأسها وقوائمها، وأجنحتها.. وبدأ يسحبها تجاه وكره ومكمن بيضه. كان قد وصل إلى عتبة مخدعه، عندما أحس بالعنتر ينقض على ظهره، وينفذ فيه أظافره الطويلة السوداء.. أبعد العنتر الزنبور عن جسمه لكي لا يلدغه، مدة الزمن القصير الكافي قبل شله.. كان ما زال يمتص دمه عندما أحس كأن السماء انطبقت على الأرض.. بالكاد استطاع أن يرفع جبهته المثلثة الغائرة بين عينيه، داسه أحد الجمال بخفه، وغاص الجميع في الرمل... عندما توارت شعلة الجحيم الحمراء خلف أمواج الصحراء، خرج الرجال من مغاراتهم، وحمّلوا القافلة بسرعة، وانطلقوا لمسيرة ليل طويل.

مع طلائع الفجر، تتالت صيحات الدليل:

ـ غَلَّاوِيَّة! غَلَّاوِيَّة!

تناقل أهل القافلة الخبر، إنه الجبل الذي توجد البئر عنده.. انقضى اليوم في معاطن البئر. شرب الناس والجمال.. ملئت القرب وغسلت الأسمال .. عند منتصف النهار كان كل شيء جاهزا للرحيل.. لكن الدليل فضل المبيت عند البئر ليعل الجمال بالشراب من الغد.. في تلك الليلة عند البئر، لم يغب عني صوت الرجل القصير أبو الهامة، الذي كان يرتاد جناح الكلام بسوق أَوْدَاقُوسْتْ. كانت كلماته تدق أذني باستمرار "إذا كنت رافضا للقدر، فاعتزل البشر وانفرد في الصحراء وانتظر أمر ربك!" أجمعت أمري على الأخذ بمقولته.. بقيت مستيقظا، عيناي ملأى بالنجوم.. كان القمر يرسل ضوءا خافتا على القافلة المعرّسَة ومتاعها المبعثر.. عند منتصف الليل، غطت جميع العيون غشاوة النوم.. رحت أتسلل رويدا

رويدا بين الأحمال، أفتش عن ما يمكنني حمله من زاد.. تحسست مخلاة من النوع الذي يوعون فيه طحين القديد. فككت رباطها لأتأكد.. أخذت إحدى قرب الماء وغادرت المعرس على عجل، تلقاء الجبل، مسرعا كثعلب الصحراء على الباطن المَرِيح. مع الصبح سيكون أثري الخفيف قد مسحته الرياح.. سيثبط ذلك عزيمة كل من قد يفكر في ملاحقتي.. وسيكون بوسعي أن أبدأ خلوتي على قمة الجبل دون تشويش من أحد.

الجزء الثاني

برج البيضاء

الطبل

كتائب النسور بمناقيرها الثقيلة الفولاذية وأعناقها الطويلة كخراطيم الفيلة، كانت تحوم باحثة بأعينها النفاذة عن جثة! لكنني كنت أنتصب واقفا بانتظام، وجهي إلى الشرق، أرفع جناحي وأبسط يدي في محاذاة أذني، وأصيح صيحة مدوية يرددها الجبل.. أظل واقفا، مطمئنا، أتمتم بتلاوتي.. وأركع مادا رأسي إلى الأمام، قابضا على ركبتي بيدي، مستقيم الظهر، راسما زاوية قائمة من ظهري ورجلي.. أقف.. ثم أهوي برأسي، واضعا جبهتي وأرنبة أنفي على الأرض، واقفا من مؤخرتي على ركبتي.. أستوي جالسا ثم أعود برأسي إلى الأرض ثانية.. وأجلس مطمئنا ثم أستوى واقفا.. وأطلق نفس الصيحة المدوية التي كانت تضعف مع الأيام.. كنت أكرر نفس الحركات، مرتين، ثلاثا، أربعا، حسب الأوقات.. في الليل أسمع عواء الذئاب.. لكن تكبيرات الصلاة كانت دائما تؤخر وقت الفريسة..

أربعون يوما، أربعون ليلة مضت، منذ أن بدأت خلوتي على رأس الجبل، أمضيت أولها أصوم النهار، وأفطر على جرعة من ماء قربتي.. وأبلل سُفّة من الطحين.. وأصلي! وأصلي! أولى ليالي الخلوة، صليت لوجه الله الخالق، الآخِر الذي ليس له بعد.. والأول الذي ليس له قبل.. تضرعت إليه وواثقته ميثاقا غليظا: "أقسم بالله أن لا أعود إلى البشر الفاسدين، وأن أعيش حياتي عدلا، بعيدا عن الجائرين، حتى مماتي!". الانقلاب الكلي في داخلي لم يغير شيئا في ناموس الكون.. كل شيء كما كان: الشمس الدائبة من الشروق إلى الغروب، والرياح السموم المحملة بالحصى والغبار هي هي، تدوي في جنبات الجبل كالطبل. احتفظ وجه الطبيعة بملامحه القاسية التي نحتتها الرياح والشمس في رمال وهضاب الصحراء.. لكن إرادتي لم يزعزعها لا الحر الشديد في النهار، ولا الزمهرير القارس بالليل، ولا الجوع، ولا العطش.. كنت كلما أحسست وسواسا مثبطا، سمعت صوت أبي الهامة: "اعتزل البشر، انفرد في الصحراء وانتظر أمر ربك"..

نفد ماء القربة.. آخر قطرة شربتها مضى عليها ثلاثة أيام.. كل ساعة تمر، تأتي بلون جديد من العذاب للجسد المنهك جوعا وعطشا؛ لم يكن الليل يخفف منها إلا ليجعل المعاناة أقسى من الغد.. بعد أيام الصوم الكامل، تيبست أعضائي.. ضعفت عن أداء الصلاة، حتى بعيني أو إصبعي أو في قلبي.. الخشوع حل محله وهن شديد وقلق فظيع وكره مقيت للجنس البشري.. الألم الذي لم يعرف مثله يزحف رويدا رويدا في الجسد، يبتلعه كما تبتلع الرمال غرقاها.. الشفاه والفم والمريء تيبست وتكسرت.. المعدة والأمعاء تتلوى كأن قوة هائلة تعتصرها لاستخراج ما تبقى فيها من ندى.. نار شرسة تحرق الأحشاء؛ ويمتد الحريق ليلتهم الوجه واليدين والصدر... عندما كنت أحس بالنسور تهبط على جسدي بمخالبها المسننة، وأحس بمناقيرها الفولاذية تنهش بدني، ينتفض جسمي

انتفاضة شديدة، يائسة.. تطير النسور لتتحلق حولي غير بعيد، ترفرف بأجنحتها وتختال، تنتظر وعدا مؤكدا حان وقته.. آلام مبرحة ترن في عظامي، في لحمي، في عروقي، تظل تتزايد في نوبات مفاجئة، ثم تمر بمرحلة جزر قليلا، ليرجع المد أقوى مما كان.. أحس كأن قلنسوة من حديد عضت رأسي وراحت تضيق عليه، تضغط بصورة متزايدة.. تجاوزت عظم الجمجمة لتقبض على الدماغ... انفجرت في كياني حمى نافض فظيعة، أعقبها إحساس بالانهيار الكلي.. فطلائع الغيبوبة... هدأت الآلام، ارتخت الأعصاب وتمددت الرجلان؛ هدأت العروق اللاهثة، ما عادت عطشى ولا جائعة.. أسمع طنينا متواصلا في أذني.. بموجات صوتية طويلة.. أحس كأني وسط جمع غفير من الناس، أكاد أميز من الضوضاء جوقة من الأصوات الصديقة.. يبدو أن الصحراء امتلأت بالبشر، لمشاهدة موتي... أنا في عالم جديد، تهاجمني ذكريات تافهة، غريبة، كالنسور التي أطردها وتعود...

نزلت من السماء سحابة مثقلة بالماء، صارت تبلل شفتي وتنزل إلى الصدر والرجلين، ثم تعود القهقرى إلى الجبهة... إحساسي بهذا الحضور الغريب كان يختلف كليا عن إحساساتي الأخرى.. كان يتجسد رويدا رويدا ويرقى إلى مستوى استمرارية وكثافة الوجود... مع ماء السحابة كان الجسم يستعيد حياته.. في الوقت الذي مازالت فيه الصور والأصوات ضبابية.. كان شيء ما أخضر يتجسد في هذا الوسط الضبابي. الآن وصل الماء إلى كل الجسد... بُعث الدماغ.. النفس البشرية المغرورة، انبعثت من الماء من جديد.. كنت مستلقيا على ظهري في نفس المكان على رأس الجبل، في ظل كائن لم أتبين هويته، ليست له ملامح مميزة، تحيط به هالة خضراء عجيبة، تفصله عن الهواء من حوله، كأنه غريب على الأرض.. اختفت النسور! كان الضوء يغمر السماء.. والشمس باسطة عباءتها على الصحراء.. ركزت نظراتي على الكائن

الضبابي خلف هالته الخضراء، فاقشعر بدني من الرعب واصطكت أعضائي من الفزع.

- اسمي الخَضِيرْ.. أنا ملك الزمن، آية الله التي كنت تنتظر! أنت ثائر على سنة البشر، لكنك لن تستطيع أن تتخلص من بشريتك...

-أريد أن أرجع القهقرى في الزمان، إلى نقطة ما قبل وجودي، إلى العدم الأول.. عسى أن أكفر بذلك عن ذنبي الأعظم، ذنب وجودي.. لأنني في الحقيقة شيء غريب على الأرض...

-أنا نفسي مسافر في الماضي، لكي أؤثر في أحداث معينة، أتفادى بعض الكوارث، أو أؤجل وقوعها.. هنا مثلا، سأشارك ابن ياسين في هجومه على أَوْدَافُوسْتْ، لكي نحطم مصانع المدينة، ونحُول بينها والكارثة البيئية المشرفة عليها قبل وقتها.. لكن سفرا في الماضي كهذا مستحيل على البشر.. لأن الإنسان عاجز عن الحكم بتمعن على الماضي بالمستقبل.. لو كنت، أنت مثلا، تستطيع السفر إلى الماضي، لكنت منعت والديك من إنجابك، وهذا مستحيل لأنك حييت. لكن، وبما أن الله ألهمني أن أساعدك، سأعطيك فرصة السفر في المستقبل.. صحيح أنك سافرت في المستقبل طيلة حياتك، لكن الفرصة الجديدة التي سأمنحها لك أكثر إغراء بكثير، إنها عبور إلى الزمان الآخر.. سيكون بإمكانك التوقف عند المحطة الأولى والبقاء فيها نهائيا إذا شئت، أو مغادرتها إذا لم ترضك .. يكفيك في هذه الحالة أن تبتعد عن سكانها، وتدخل الخلوة.. تصلي وتنتظر أمر ربك، كما فعلت هنا.. لكن إذا اخترت هذه الحالة، فستكون المحطة التالية هي الأخيرة، ولن تستطيع الخروج منها إلى مستقبل آخر.. والرجوع إلى الماضي مستحيل.. ستموت هناك.. فكر جيدا قبل أن تغادر المحطة المقبلة! وتوارى بسرعة خلف هالته الخضراء..

1

الأبكم

ثمة خطى تقترب.. صاروا إلى جانبي، يحيطون بي، يتحاورون، كل منهم يعرض ما يعن له من اجتهادات.

ـ غريب! يبدو نائما!

ـ أرأيت؟ إنه يتنفس! حي!! ما أغرب ثيابه!!

ـ النوم هنا في هذه الشمس، في هذه الريح والقيظ، على رأس جبل الغَلّاوِيّة ؟؟

ـ مجنون!!

ـ مبعوث من عالم الموت!!

لم أكن أستطيع أن أفتح عيني.. جفوني المثقلة كانت مخاطة بالنعاس.. حاولت أن أتكلم.. دون جدوى، جسدي مازال خدرا. حملني أربعة من جناحي ورجلي.. ولما فتحت عيني قليلا رأيت قاماتهم السوداء مرسومة

في السماء، يرتدون صدريات داكنة في صفرة وتحتها سراويل قصيرة تبلغ نصف الرجل، نفس اللون، ومحازم جلدية عريضة يتمنطقون بها من فوق ثيابهم. وكانوا يديرون حول أعناقهم قطعا من قماش.. بنادقهم معلقة على أكتافهم، فوهاتها إلى أسفل. ابصر صفحات وجوههم وخدودهم الناتئة، وأنوفهم المفلطحة.. كلما حاولت رفع رأسي لرؤية الرجُلين الأماميين اللذين يحْملاني من رجلي، نظروا إلي جميعا بعيون محمرة.. كانوا يهبطون منحدر الجبل من غير طريق، يتلكأون بحذر بين الصخور.. كان معسكرهم في السفح عند نهاية منحدر شديد. كان ثمة رجل شديد البياض، يجلس تحت شجرة تنضب ظليلة، بجانبه شابة صفراء، تلبس ملحفة سوداء فضفاضة.. في نهاية الظل كان هناك ثلاثة رجال بشرتهم نحاسية، يتعاونون على إيقاد نار صغيرة.. لممهم طويلة، سوداء، مبرمة.. يلبسون قمصانا من غير أجنحة.. الذين حملوني كانوا خمسة جميعهم سود. عندما رآنا الثلاثة النحاسيون، هرعوا إلينا وتركوا النار التي كانوا منهمكين في إيقادها.

ـ ما هذا؟ عثرتم على جثة؟

أين وجدتموها؟

ـ كيف لم تلتهمها النسور والذئاب؟

كنت أراهم من خلال الفتحة الصغيرة بين جفوني، سائرين جميعا بجنبي، يتزاحمون على رؤيتي، والتحديق في وجهي.. يتكلمون جميعا في نفس الوقت.

ـ هذه ليست جثة، أنظروا إنه يتنفس!!

ـ يبدو كالنائم...

ـ نوم غريب!

ـ وجدناه نائما في الشمس على قمة الجبل!!

ـ منذ قليل رفع رأسه وفتح عينيه، أتينا به ليراه البَطْرُونْ..

ـ قُوسْتْبَاسْتَرْ! قُوسْتْبَاسْتَر! أنظر إلى هذا الذي جاء به القَنّاصة !

هكذا صاح أحد الثلاثة النُّحَاسِيّين الذين يمشون بمحاذاة رأسي. طرحوني في الظل، قريبا من الرجل الأبيض الذي بدت علامات الاهتمام على وجهه، بينما كانت زهرته المُتَمَلْحِفَة تزعق زعاقا شديدا من الفزع، كأنما رأت شبحا.. صارت تلوذ برجلها، تحتمي به!!

ـ لا تفزعي عزيزتي، اطمئني، اطمئني !! ليس هذا إلا رجلا كان سيموت عطشا.. دعوه الآن! ماذا تنتظرون هيا جميعا!! أسعروا موقدكم، وأسرعوا بالانتهاء من شَايِكُم الذي لا يكاد ينتهي! اذهبوا أنتم، أحْضروا الجمال!

في الظل، انفتحت عيناي.. رأيت الشجرة التي تظلني.. رأيت السماء.. أصبحت أرى الكون من عدسة ناظور... أمسك الرجل الأبيض بساعدي، صار يجس نبضي؛ أعاد جناحي بهدوء إلى حالته الأولى.. كان قلبي ينبض بانتظام، كساعة ميكانيكية في زنزانة محكوم بالإعدام.. رفع أحد جفوني وحدق داخل عيني؛ أخذ شفتي السفلى وجذبها إلى أسفل.. مرر إصبعه على اللثة ؛ أخرج إصبعه وعرضه للرياح لحظات.. أخذ يدلك جسدي من كل مكان، ويفحص كل مفصل، ويقلب كل عضو.. تفوه برطانة سريعة متواصلة لم أسمع مثلها.. ثم تكلم بالعربية.. نادى على النُّحَاسِيّين حول موقدهم:

ـ مَرْدُوشَا! تعال هنا، أحضر الشاي!

أقبل رجل دميم عظيم الهامة يحمل إبريقا وكأسا صغيرة.. ناولني الكأس منصفة من سائل ساخن، غليظ، مسكّر.. شربتها ورشفت الرغوة التي بقيت عالقة بقعر الكأس..

ـ أعطه كأسا ثانية!

هكذا شربت ثلاث كؤوس متتابعة.. ثم أطعموني وجبة من طحين القديد، مبللة بالدهن.. كان قُوسْتْبَاسْتَرْ يواصل طرح أسئلته عن هويتي، وعن وجودي على قمة الجبل.. وكنت أتمنى أن أجيبه، أن أقول له إني لا أعرف من أنا، ولا أعرف شيئا عن سبب وجودي هنا.. لكني بقيت صامتا رغم أنفي.. حاول أن يتواصل معي بالإشارات، دون جدوى.. أخيرا تركني متكئا في الظل، غير بعيد من زهرته التي سكن روعها أخيرا.. كان يعطي أوامره حول الطريقة التي يجب أن تطوى بها الأمتعة وتحمل على الجمال التي جاء بها القناصة السود.. كانت أحمالهم صناديق حديدية عملاقة، وقربا من حديد.. "وَتْشْ ! وَتْشْ!"، كانوا يبركون الجمال.. شدوا الرحال على الركائب أولا.. ثم وضعوا الأقتاب على جمال الأمتعة. ثمة جمل أسرجوه بهودج مسردق ببنائق ملونة، حمر، صفر، خضر.. وكان ثمة جملان شدوا على أحدهما رحلا هرما متداعيا، عاريا.. بينما شدوا على الآخر رحلا جديدا جميلا، محشوا، مغشى بالجلد المزخرف.. القرب الجلدية الملأى بالماء علقوها تحت القرب الحديدية.. أمر قُوسْتْبَاسْتَرْ القناصة أن يحملوني على جمل المتاع المخف وأن يركب معي مَرْدُوشَا ويظل ممسكا بي لكي لا أسقط. أجروا فحصا على الأزمة و آغْوَابَ وتأكدوا من سلامة وضعها قبل أن يوقفوا الجمال.. أنا الآن مستلق على ارتفاع أكثر من خمس أذرع، يمسك بي أبو الهامة على ظهر جمل.. الجمال ترغي مضطربة تحت الأحمال التي لم تستقر بعد.. قُوسْتْبَاسْتَرْ يدور بالجمال، ويتفحص طريقة الشد، وتعادل الأحمال.. جمل الهودج وجمل الرحل الأنيق ما يزلان باركين.. عندما اصطفت الجمال خلف جمل الرحل الهرم، إيذانا بالانطلاق، نادى قُوسْتْبَاسْتَرْ:

ـ قَلْقَالَه أسرع، ناد على فَالَه، قل لها إن جملها جاهز!

لاحقته بنظراتي وهو يركض.. لقيها على قمة كثيب، تنظر تجاه الشمس المائلة للأفق، كأنما تفتش عن وجه أليف.. انتظرت قليلا ثم أقبلت، تمشي

أمام قَلْقَالَه.. لكنه سبقها للجمل البارك، وبرك هو الآخر في موازاة حارك الجمل.. رفعت ملحفتها كاشفة عن ساقيها.. أعطاها قُوسْتْبَاسْتَر كتفه.. استندت إليها، أمسكت بإحدى يديها عمودا من الهودج، ثم رفعت قدمها اليمنى العارية فوضعتها على ظهر قَلْقَالَه ورفعت الثانية، لتستوي قائمة على ظهره.. رفعت رجلها اليمنى من جديد فوضعتها على الحارك.. وأتبعتها باليسرى التي أعطاها قُوسْتْبَاسْتَر راحة يده سلما إلى الهودج.. عندما استوت قائمة انزلقت بسهولة، فاحتواها الهودج تماما. أوقفوا الجمل وانطلقت القافلة في اتجاه الجنوب الشرقي..

درجة الحرارة آخذة في الانخفاض، لكن الرياح المتربة لم تضعف.. الظلال تتمدد ببطء مشرقة، كأنما في نيتها أن تفلت منا.. بدأ الطريق وعرا.. العوكلات الثقال تتخللها الأحقاف الرملية الهاوية.. كانت المسالك قليلة.. في أحيان كثيرة، كان على الدليل أن يجابه الوعثاء، ويصارعها لكي يحتفظ بجهة المقصد.. رتابة السير في هذه الأرض الوعرة ما كان يقطعها سوى الاصطدام بين حين وآخر بسيوف رملية.. كانوا يصارعون من أجل التقدم خطوة، وكانوا يراقبون عن قرب أحوال الجمال واعتدال أحمالها.. وحده قُوسْتْبَاسْتَر، كان يتأخر أحيانا عن القافلة، وينحرف ذات اليمين وذات الشمال، يتفحص الطريق، كأنما يفتش عن ضالة. أحيانا يتوقف، يأخذ شيئا، يتأمله.. يعثر مرة على محارة أو على شَظْيَةٍ من أي شيء، وأحيانا على عظم رميم، يأخذه معه... كان يلفلف ما يجمعه من هذه الأشياء في قطع من الورق، ويوصلها إلى فَالَه التي تخرج يدها من الهودج لتتناولها منه.

أبو الهامة الذي يركب معي كان يتكلم بلا انقطاع :

-... أخيرا وجدت من يصغي إلي! أنت لا تنبس بحرف، لكنك لست أبكم.. إنما فقدت مؤقتا القدرة على الكلام.. أنت الآن مستودع للاندهاش البكر والروع المتوثب الحاد.. وليست لك القدرة على إخصاء الحقائق وتدجينها، وتشويهها، ودفنها في القوالب الكلامية المميتة.. أنت كلك تعجب.. صامت، مطبق على ذنبك الأكبر! أعرف أنك تسمعني، لكنك لا تستطيع الجواب.. أنا أكره الأجوبة، لأنها لا تنطبق أبدا على الأسئلة! إنها تعتمد دائما على افتراضات غير موجودة في الأسئلة أصلا... على كل حال، إذا أجبتني فسأرمي بك وأقول لِفُوسْتْبَاسْتَرْ أنك سقطت مني خطأ.. أنا لا أحب البشر الذين يكلمونني، لأنهم دائما عنيدون، ومتعصبون على جهالتهم.. مضى علي زمن طويل وأنا ممنوع من الكلام.. عندما صحت وقت ولادتي، كمموا فمي.. وخلال الخدمة العسكرية حرموا علي الكلام.. وكان الرقيب يحبسني كلما تكلمت في الصف.. وفي الحياة المدنية لا ينبغي الجهر بالكلام، لأن ذلك ينافي الأدب.. وبما أني لست غنيا ولست سليل أسرة نبيلة، فليس لي الحق في الكلام.. إنني كلما تكلمت أجد الناس طرشانا.. يعطوني الألسنة بدلا من الآذان.. تُرى، لو أنصت إلي الناس هل أتمكن من شحن الحقائق في أسماء وألفاظ ونقلها إليهم؟.. الوجود يهرب من أي كلمة أحاول بها التعبير عنه! كلما فكرت في أعجوبة من البعيد، أجابني هاتف: "ما عُلِّم آدم اسما كهذا!"...

لم أسكت فقط، بل أغمضت عيني، مخافة أن يلقي بي هذا المجنون إلى الهاوية، بين يدي الجمل الذي يتبعنا. كانت هدهدة الجمل بين تضاريس الرمال صعودا، هبوطا، وحديث هذا المهذار المجنون بمثابة الحكايات التي ينام عليها الأطفال.. رحت في نوم عميق.. رجع وعيي بالزمن الآخر.. عرفت من أنا.. تساءلت عن الحقبة الزمنية التي أنا فيها. «من الممكن أن لا أكون سافرت في حقبة زمنية أخرى.. الشمس، والرياح،

والرمال في المجابات الكبرى مازالت كما كانت... وقوافل الأسياد والعبيد... هل يمكن أن يكون ملك الزمن خدعني؟ لكن هذه القافلة غريبة لاتشبه القوافل التي أعرفها.. إنها لا يمكن أن تكون من فترة سِجِلْمَاسَه.. هذا المهذار الذي يردفني كان يمكن أن ينجح في جناح الكلام في سوق أَوْدَاقُوسْتْ.. وفَالَه! كم تغيرت! أصبحت أثير فزعها الآن! كيف وجدت نفسها في هذه القافلة مع هذا القُوسْتْبَاسْتَرْ؟ هل هي أخرى بنفس الاسم؟ عجيب هذا الشبه بينهما.. لا، هي هي! سأكلمها عندما أستيقظ، وأذكرها بلياليا الطويلة في أَوْدَاقُوسْتْ، في الدار المهجورة في الحي الصناعي .. سأسألها عن آخر أخبار ثورة العبيد...» استيقظت مروعا، أهوي بين السماء والأرض.. صفعتني الرمال بقوة عندما اصطدمت بها ساقطا.. وجدتني بين يدي الجمل الذي كان يتبعنا. سقوطي سبب جفولا للجمل فأقعى إلي الوراء، وجذب زمامه فقطعه..

ـ عمدا فعلها!

قالوا جميعا في وقت واحد: " تكلم ! تكلم !" استندت إلى من كان بجانبي.. وقفت.. خطوت خطوات قبل أن أسقط.

ـ يمشي!

ـ قُوسْتْبَاسْتَرْ، مشى! تكلم!

بسرعة جاء قُوسْتْبَاسْتَرْ.

ـ عمدا فعلها! هكذا قلت أمام قُوسْتْبَاسْتَر.. هددني، وعندما نمت أسقطني!

ـ أقسم أنني لم أتعمد إسقاطه! كان المنحدر شديدا، فانسل من بين يدي!

ـ غبي! ستتولى الخدمة مدة اليوم والليلة عقابا لك!

قالها قُوسْتْبَاسْتَرْ بنبرة احتقار ممزوج بالوعيد.

كان القمر يضيء، يعطي للرمال منظرا أنيسا، كأنما تستوطنها أرواح أنثوية.. أعطى البَطْرُونْ الأوامر بالتعريس بين ربوتين عظيمتين.. كان ثمة نبات هزيل من عشب اصْفَارْ، وأضغاث صغيرة متباعدة من الحلفاء. قيدوا الجمال قيودا قصيرة.. واستقر بنا المبيت.. أبو الهامة الذي غدر بي، استطاع أن يجمع قليلا من الحشيش وأوقد نارا صغيرة، أعطى ضوؤها المتراقص ملامح قزمية للمعرس تحت ضوء القمر.. أخذ مَرْدُوشَا يبلل طحين القديد.. وقدم الشاي للبَطْرُونْ وزهرته المنفصلين قليلا عنا، بجانب الهودج المنصوب على الأرض..

في هدأة واستسلام الأجساد لمفعول التعب، ناداني قُوسْتْبَاسْتَر.. أسندني مَرْدُوشَا، ومشيت خطوات متثاقلة، حتى جلست بجانبه..

ـ حسن، تستطيع أن تتركه الآن.. هذا تقدم ملحوظ! وسريع! هذه السقطة من فوق الجمل حققت معجزة، أرجعت لك الكلام، وتستطيع قريبا أن تمشي مستقلا.. حدثنا الآن عن نفسك!

ـ لا أعرف شيئا عن نفسي!

ـ كيف؟ من أنت؟ ما اسمك؟

ـ لا أعرف إن كان لي اسم.. لا أعرف من أنا، ولا من أين، ولا إلى أين؛ كل ما أعرفه عن نفسي هو أني، عندما كنت على الجبل، سمعت أصواتا ووقع خطى تقترب مني.. إنهم القناصة الذين حملوني إليك.. لا أتذكر شيئا قبل هذا.

زهرة البَطْرُونْ، التي بدت ساحرة تحت ضوء القمر، متمددة على الرمل.. كانت ترميني بنظرات حذرة، متوجسة.. في الجانب الآخر، خلف الصناديق والبراميل، كان القناصة يملؤون مناخيرهم بالشخير.. اليربوع يهوي من الربوة في قفزات سريعة، ترسم سنبلة الشعر الأبيض الأسود في نهاية ذنبه الطويل خطوطا متعرجة...

ـ قد يكون فقد الذاكرة! قالها قُوسْتْبَاسْتَر مخاطبا فَالَه..

لم تجب.. انفتلت واستلقت على ظهرها، مولية وجهها لمطر النجوم..

ـ مَرْدُوشَا! تعال.. اذهب به، أرجعه إلى مكانه.. سأرى في أمره فيما بعد.

أرجعوني إلى مكاني.. اتكأت بينهم.. قاطعني النوم.. سمعت صوت فَالَه ورأيت قُلْقَالَه يهب مسرعا.. صعد الربوة، وتوارى خلفها.. قامت فَالَه في إثره.. توارت خلف الربوة في نفس المكان... عندما رجع وأخذ مضجعه، زحفت برأسي ناحية أذنه وهمست:

ـ ماذا كنتما تصنعان؟

ـ كنت أحفر لها غارها.

ـ غارها!؟

ـ نعم.. غارها! ذلك هو شغلي.. أنا متفرغ لحفر غيران عشيقة الباحث الأثري!

ـ يا للوظيفة!

ـ أعترف بأن ذلك ليس صعبا.. طبيعة الأرض هنا تجعل مهمتي سهلة! في كل مرة، عندما ترغب في الخلاء، تشعرني وأجد لها المكان

الملائم. أحفر لها غارا مستقيما مضبوط الاتساع، وأحيانا غارين أو ثلاثة.. ثم أردمها عندما تقضي العشيقة حاجتها.

ـ هذه البنت مدللة...

ـ بشكل لا يمكن أن تتصوره! انظر مثلا، قبل يومين، في آخر مرحلة قبل الغَلاَّوِيَّة، كدنا نموت عطشا، بالرغم من أنه كان عندنا الماء ...

ـ كيف ؟؟

ـ كان القيظ شديدا.. رحلنا الفجر آملين أن نصل الغَلاَّوِيَّة قبل الليل. لكن الرياح السموم كانت شديدة، ولم ينتصف النهار إلا وقد أصبحت القرب يابسة.. وكان أحد البراميل ما زال يبلغ ما فوق النصف من الماء.. لكن قُوسْتُبَاسْتَر منعنا أن نشرب منه وقال: "إن هذا الماء مخصص لاستحمام فَالَه، ويحرم مسه!" تَمَكّن الدليل من العثور على البئر مع نهاية الليل. لكن أحد القناصة الذي اشتد عطشه مات مباشرة بعد أن شرب! كان من الممكن أن نموت جميعا، دون أن يسعفنا بماء استحمام عشيقته! هذا الجمل العملاق الذي ترى، مفرغ لحمل ماء استحمام العشيقة...

ـ وهذه الصناديق الضخام؟ ماذا تحوي؟

ـ أدوات البحث والتنقيب الأركيولوجي: معاول وعربات يد، مجارف، آلات تصوير، مقاييس، أدوات رسم، خرائط طبوغرافية...

ـ لمن ستبيعون هذه البضائع ذات الأسماء الغريبة؟

ـ ومن قال لك إنها بضائع؟ إنها أدوات الباحث الأثري!

ـ الباحث الأثري! هل هكذا تلقبون قُوسْتُبَاسْتَر؟

ـ لأن هذا شغله، إنه يمارس البحث عن الأثار القديمة! يتعرف من خلالها على حياة الناس الأقدمين... لكنك أتعبتني! أنت كالطفل، أسئلتك كثيرة وسخيفة!

أمضيت بقية الليل ساهرا.. كانت السماء لابسة عباءتها المرصعة بالجواهر المتلألئة، كأنما سكان المجرات الكونية أحضروا جواهرهم، متباهين في ترصيع ثوب السماء.

2

"أنْتْرَشْ"

كنت أستطيع أن أجلس على ظهر الجمل دون مساعدة، عندما غادرنا المعرس.. أردفوني مع رجل نحاسي، من باب الاحتياط. كان المِهْذار يمشي صامتا بين الآخرين.. ثمة زوابع رملية صغيرة على قمم الكثبان، كدفعات الدخان التي ينفثها المدخنون، تنبئ عن يوم عاصف.. الشمس السخية فوق المعتاد كانت تشحننا بغذائها اليومي. أحسست برغبة في ثرثرة عادية.. ربما ذلك ناتج عن عدوى أبو الهامة.. لكن لا يبدو أن عدلي الجديد من هواة الكلام.. من سوء حظي أنها المرة الأولى التي أرغب فيها بالكلام، فأقع على شبه أصم.. عزمت أن أختبره قبل أن يشتد القيظ الذي يقفل الأفواه، ويذيب الأدمغة.

ـ ما أكثر المفارقات في تسلسل الأيام!

ـ إيه!؟

ـ يبدو أنه سيكون يوما آخر شديد الرياح! قلتها مستدركا.

ـ هكذا طوال السنة!

ـ لماذا هذا التيه المستمر عبر الرمال وتحت لهيب الشمس وبطش الرياح؟

ـ ذلك من كثرة ذنوب هذا المُطَوّح في المفاوز، عابر حيز نقصانه!

ـ الآخر؟

ـ نعم هذا الزّوْزَالْ الخَصَّاء، قُوسْتْبَاسْتَر، الذي جمعنا في أَطَارْ، وسار بنا في المجابات الكبرى على اثر القوافل القديمة.. إنه مجنون! كيف يستطيع أحد اقتفاء أثر جمل على الرمال بعد عشرة قرون؟

ـ ولماذا يقفو آثار القوافل القديمة؟

ـ يعتقد أنها ستقوده إلى أطلال أَوْدَاقُوسْت، مدينة القوافل المفقودة.

ـ أَوْدَاقُوسْتْ ؟! هذا غريب! يخيل إلي أن هذا الاسم يذكرني بشيء ما... ربما كنت قد سمعته في الماضي... لكن لا! قد يكون ذلك بسبب انطواء كلمة أَوْدَاقُوسْتْ على شيء من رنين اسم قُوسْتْبَاسْتَر...

ساعات الاعتدال الأولى من النهار سالت من بين أيدينا دون أن نشعر وأسلمتنا إلى حمّارة القيظ.. تحولت القافلة إلى تنين متعب تتقاذفه أمواج الهجير على مَلَّةِ الرمال المشتعلة.. في مقدمة الركب، كان هودج فاله يعوم في لجج السراب المشتعل، كأنه شراع سفينة فضائية.. النبع الكلامي الذي كان يغرف منه رديفي جف.. كان فمه مختوما، كأنما يخاف على لسانه أن يتبخر أيضا...

طَفَلَت الشمس للغروب ورحلت معها بجزء من الحر.. ضعفت الرياح، قبل أن تتوقف، وهبط السكون. اشتركنا في المعرس هذه الليلة مع اثنين من صيادي المها والغزلان. رجلان من انْمَادِ معهما قطيع من كلاب الصيد المدربة، عيونها نوار العضرس.. وجدناهما منتهيين من جولة صيد، كانا يقيمان في وهدة بين حقفين تحيط بها دائرة من لقى العظام. المجابات الكبرى فقدت خاصيتها المناخية في هذه الحفرة.. مناخها الذي يشرح الصدور، وينشط العيون، ويحدد البصر، حل محله هنا هواء غليظ مثقل برائحة الجيف النتنة. الرائحة النتنة كان لها في أعصابي مفعول المخدر، فنمت مبكرا.. في الساعة الأولى من النوم، عثرت بارتياح عل نفسي الضائعة، «أعرف الآن أنني موجود في حقبة زمنية أخرى.. الخضير كان أمينا معي: عشرة قرون كما قال رديفي. وأَوْدَاقُوسْتْ التي لم يعد يوجد من يعرف مكانها! الرجل القصير أبو الهامة في سوق أَوْدَاقُوسْتْ، ياله من نبي! لكن هل يصح ذلك؟ عشرة قرون! وأثار أَوْدَاقُوسْتْ لا يعرف أحد أين هي! لا، مستحيل! المسألة قد تكون ببساطة، محاولة من قُوسْتْبَاسْتَر، لملء فراغه.. لكن عندما أستيقظ سأقول له أمام الجميع إنني سأقوده إلى أَوْدَاقُوسْتْ! سأقول له إنني غادرتها منذ أيام فقط، وسأدله على مكانها.. سأقول له إنها ثابتة عند أسفل هضبة بيضاء شهباء جافة.. وأن قصورها فسيحة جميلة.. وفيها مذاوب كثيرة لتصفية وصياغة الذهب، وصناعة الزجاج.. وأسواقها مكتظة بالسلع والناس الذين تتعالى ضوضاؤهم، فلا يستطيع المرء أن يسمع نجوى! وبين الأسواق عين ثرة، تقتنص منها آلهة الأسماء.. وأنها توجد بها فتيات حسان الوجوه، مشرقات الألوان، ممشوقات القدود، لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف.. المستمتع بهن كالمستمتع بالحور العين.. وسأحدثه عن الأخطار المحدقة بالمدينة: تيبس آبارها وانقراض الأشجار من حولها والهجوم الوشيك لابن ياسين عليها.. وأذكر له الخضير القادم من اللازمان ليحطم أفران المدينة، وأقص عليه أخبار

ثورة العبيد...» أيقظني الأب يهزني بعنف ليسير بي إلى قافلة الملح، وسمعت صوت قُوسْتْبَاسْتَر، يلهث بنفاد صبر.

ـ إذن، تعرف أين توجد المدينة؟ موقعها؟

ـ ... المدينة؟ أية مدينة؟

ـ المدينة التي كنت تهذي بها وأنت نائم!

ـ أنا كنت أتحدث عن مدينة؟

ـ أعد عليه ما سمعت! قالها قُوسْتْبَاسْتَر لأحد القناصة كان إلى جانبنا.

ـ كنت متكئا إلى جانبه.. لم أكن نائما.. سمعته يقول إنه سيقودك إلى أَوْدَاقُوسْتْ، وراح يصفها.. ظننت أنه هذيان محموم.. لكنني عندما لمست جبهته لم أجده محموما.. فكرت أنك قد ترغب في سماع ما يقول، وأخبرتك لكي تأتي وتسمع بأذنك...

ـ هل سمعت؟ أرأيت أنك كنت تتكلم عن أَوْدَاقُوسْتْ؟ قالها قُوسْتْبَاسْتَر وهو يواصل هز منكبي.. أنت تعرف الكثير عن هذه المدينة، ولا يمكن أن تخترع كل هذا الذي سمعناه.. أو لعلك قرأت للكتاب القدماء... بأي طريقة حصلت على كل هذه المعلومات؟ هل قرأت البكري؟

ـ الب...؟ لم أسمع بهذا الاسم.. لم أقرأ كتابا قط!

ـ ومن أين لك هذا الوصف الدقيق لمدينة اختفت منذ قرون؟

حاولت أن أقنعه بأني لست كاذبا.. وأن لا علم لي بأي شيء مما يتحدث عنه.. وليست لي أية فكرة عن هذه المدينة التي يسميها أَوْدَاقُاسْت... قُوسْت...

ـ أَوْدَاقُوسْتْ! زأر قُوسْتْبَاسْتَر..

ـ أقسم أنني لا أعرف شيئا عن هذه المدينة.. قد يكون غيري هو الذي سمعتموه يتحدث عنها..

أمسك قُوسْتْبَاسْتَر رأسه بين راحتيه، وأمضى ردحا من الليل وهو حائر: «كيف يجهل في يقظته ما يعيه في نومه؟».

منذ تلك الليلة، صار يسهر في انتظار هذياني، يراقبني كأنه غول ذو عين واحدة وسط جبهته.. لكني لم أهذ أبدا بعد المرة الأولى.

في يوم لاحق، بعد طلوع الشمس، أعطى قُوسْتْبَاسْتَر الأمر بتوقف البعثة. كنا مبكرين لتونا من المعرس.. لم يفهم أحد السر في هذا التوقف غير المألوف. قرر مضاعفة الحصة اليومية من الماء لكل واحد.. أومأ إلى نقطة معينة من الرمل وأمرنا بالكنس فيها. استخرجنا هيكلا عظميا باليا لجمل.. طلب منا أن ننقب في محيط الجثة. لم يتوقف الحفر إلا بعد أن صارت الشمس حصاة رملية عملاقة ساقطة في الأفق. كان حصاد هذا اليوم الطويل المليء بالرياح، والشمس، والعرق، سبيكة نحاس صدئة، ومومياء كلب.. كان الإحباط باديا على وجه قُوسْتْبَاسْتَر.. ربما كان يحلم أن يجد قافلة بأكملها، جنحت يوما من الأيام في بحر المجابات الكبرى. بعد هذا الإحباط، بدأ يهتم بي بدل اهتمامه بالطريق، كما لو أنه يظن أن في ذهني طريقا للكنوز التي يبحث عنها.. غيّر أوقات الرحيل والتعريس ليتمكن من الانفراد بي ساعات محددة من اليوم..

في بداية مسلسل اللقاءات هذا، نزل بنا على مرتفع، قبل غروب الشمس.. الحرارة التي لم تعد شديدة، كانت تغوص في الرمل مع اقتراب الليل.. سكنت الرياح تماما. الصحراء في تموجاتها الهادئة الصامتة،

اللانهائية، كأنما ترغب في معانقة السماء العارية المدلة بزرقتها الفاتنة. كان جالسا على قمة مرتفع، حاسرا قميصه عن سرواله القصير المغضن، غارزا قدميه في الرمل.. كان أبويا، تبرق على وجهه مخايل فطنة حادة. عيناه النديتان كأنما تشربان من عين مغرب قلبه.. قال لي إنه يرغب أن تتأسس بيننا ثقة متبادلة..

ـ أريد مساعدتك على الشفاء من صدماتك.. أظنك فقدت الذاكرة من جراء صدمات شديدة تعرضت لها.. لكننا لا نعرفها بعد.. سنكتشفها معا.. عندئذ سنتغلب على أعراضها.. لكن لابد من مشاركتك. هل أنت مستعد لأن تضع ثقتك في وتتعاون معي بإخلاص؟

ـ وكيف لا؟! ألا يعني هذا أنك ستجعلني أعرف من أنا ومن أين؟

ـ قد يكون ذلك...

ـ سأفعل ما تراه إذن!

كانت طلائع النجوم تظهر متسابقة في السماء.. صب مردوشا الكأس الثانية.. كان الشاي متوازنا، معتدلا، لا يطغى فيه عنصر الشاي والسكر في تصالح مختوم بالنار.. أمرني بالاستلقاء على قفاي، وطلب مني التحديق في النجوم.

ـ هل ترى تلك النجمة النيرة؟

ـ نعم، أرها!

ـ ثبت بصرك عليها، لا يبرحها.. دقق النظر فيها.. ركز عليها جميع حواسك!

كرر نفس التعليمات مدة طويلة.. ثم قال بصوت رتيب:

ـ أنت الآن في حالة أخرى.. سترد على منبهاتي الصوتية.. سيقع تغيير في وعيك، وذاكرتك.. إحساسك بإيحاءاتي يزداد.. ستعطيني أجوبة وأفكارا لم تتعودها.. لكنك قبل ذلك ستنام .. تنام.. تنام.. ستدخل الآن في نوم يمكنني من التواصل معك.. ستنام.. تنام.. تنام! أنت تنام الآن! قل لي ماذا ترى!

ـ أرى الأرض وقد دمرها الشر.. والبشر أسلموا قيادتهم لغرائزهم الشريرة... الله رفع برهانه من الأرض.. إنه نهار.. لكنه نهار مظلم.. ليلي.. لا يوجد إلا الظلمات.. ليل مدلهم سرمدي يطبق على الأرض.. البشر انفردوا مع الفجور.. ساد الشر في كل مكان.. دارت الأرض دورتها، وسقطت بعيدا عن كل الشموس.. الظلمة في تزايد مستمر.. بدأ عهد طويل من الفوضى الليلية...

سمعت فاله تصيح: " قُلْقَلَه! قُلْقَلَه!". التفت، رأيت قُوسْتْبَاسْتَر جالسا قريبا مني. "سحقا!" قالها قُوسْتْبَاسْتَر بنبرة الصياد الذي طلع عليه من أجفل صيده وأضاف:

ـ لابأس سنحاول مرة أخرى.. يمكنك الآن أن تذهب.

عند انطلاقنا من الغد، قلت لهم إني أفضل أن لا أركب، وأني سأمشي على قدمي مع الراجلين.. كنت أود أن أمرن أعضائي وأستشعر برودة الأرض على باطن قدمي قبل طلوع الشمس.. كنت أسير في مؤخرة البعثة، قرب المهذار، الذي لم يفتح فمه هذا الصباح.. كان بحر أمغر، يغمر الأفق الشرقي، استعارت منه الكثبان الجاثمة لونها كالحرباوات.. لكن الشمس المتلألئة، لم تلبث أن أطلت على مركبها الضوئي، واضعة حدا حاسما لتحكم الفوضى الليلية... الكثبان التي عرتها الشمس أخذت تسفح دموعا سودا على منحدراتها الغربية.. المنحدرات الجنوبية الغربية أشد انحدارا من الشمالية الشرقية. كانت الكثبان تتبع في

تكونها خطا منحرفا.. أصبحت البعثة أكثر وقتها تسير في سهول عريضة أكثر نباتها الحلفاء.. أحسست وجع الأقدام بسرعة، امتلأت قدماي التهابات.. أصبحت الخطوة تؤلمني.. أخيرا جلست.. قلت لقُوسْتَبَاسْتَر إنني لم أعد أستطيع المشي.. فأمر قَلْقَالَه بأن يردفني.. قفز قَلْقَالَه من على ظهر الجمل السائر، صاح بمجرد ارتطامه بالأرض.. يبدو أنها قفزة فاشلة فدعت قدمه.. أصبح لزاما عليهم أن يتعاونوا على حمله ليردوه فوق الجمل.. في المقيل دعاني قُوسْتَبَاسْتَر:

ـ ستحل محل قَلْقَالَه، في خدمة فاله.. قالها وهو شبه ساه، يحسب قطع التوافه التي جمعها على الطريق!

كنت قد وضعت أول سفة من دقيق القديد في فمي، عندما صاحت فاله:

ـ مَعْطَلَّ! مَعْطَلَّ!

لم أبال بصياحها وواصلت استفاف طحيني.. ظننت مَعْطَلَّ اسما لواحد منهم... لكنها أطالت النداء دون أن يجيبها أحد.. هرولت إليها لمعرفة ماذا تريد..

ـ جئت أخيرا! قد كدت أن لا تجيء! لماذا لم تسرع إلي من أول وهلة عندما ناديت؟

ـ ظننت أنك تعنين آخر..

ـ لا! كنت أناديك أنت!

ـ لكن... ظننت أني سمعت مَعْطَلَّ.. عطاء الله...

ـ صحيح، مَعْطَلِيَّ هو الاسم الذي اخترته لك، لأنك بلا اسم، ولا هوية.. أسرع! أحمل ماء الاستحمام إلى خلف الربوة وانتظرني هناك!

جلست طويلا في الشمس وبجانبي سطل الماء تنعكس على صفحته أشعة الشمس.. كان الصمت يحيط بي مطبقا، كأنني الساكن الوحيد في الكون. كان المعرس قد اختفى خلف الكثيب، لم أكن أرى غير الرمال في جميع الاتجاهات.. والسراب المتراقص على سطحها.. بدأت أشك في حقيقة ما أنا فيه.. هل ثمة امرأة اسمها فاله، وهل ثمة قافلة، وهل أنا موجود؟ لولا سطل الماء الذي تلمع فيه أشعة الشمس والذي وضعت فيه يدي للتأكد من وجوده، لأيقنت أني في حلم من الأحلام... رأيتها على قمة الربوة ولحقت بي بسرعة.

ـ تنح جانبا وانتظرني حتى أنتهي!

وضعت صابونة بجانب آنية الماء ولم تنتظرني حتى أتوارى .. طرحت ملحفتها.. وظهرت عارية تحت الشمس: «ما أروع وأجمل عشيقة الباحث الأثري! ما كان يمكن أن أتصور أن تلك الملحفة كانت تخفي جسما بهذه الدرجة من الكمال والجمال!» ابتعدت قليلا على المنحدر الهاري، وأنا أنظر إليها مواربةً، أسرق الالتفات.. صبت ماء قليلا على جسدها، وأخذت الصابون، وراحت تمرره على جميع أعضائها بعناية.. ثم وضعته وأخذت تدلك جسدها بتؤدة وأناة.. رأيت ثعلبا صغيرا، كبير الأذنين، يقترب منها، ينزلق على الرمل، يحبو، وهي على غفلة منه.. كان آتيا من الخلف، شعره طويل أصفر في بياض، تعلو ظهره خطوط شقراء صهب، عيناه مبرقعتان بخمار أبيض مخطط بالسواد.. صحت بها "حذار!" وركضت في اتجاه الثعلب.. لكن الملعون كان أسرع.. قفز قفزة واحدة ونزل على الصابونة، خطفها كالبرق، واختفى بين الكثبان.. هممت بملاحقته، لكن فاله التي كانت تصرخ مرعوبة، قفزت باتجاهي واحتمت بي، تبكي، تشكو:

ـ اختطف آخر قطعة صابون عندي، يا للوغد! ماذا سأصنع الآن؟ في هذه المفازة وأنا ليس عندي صابون؟ تملصت مني فجأة وصاحت بي:

ـ ماذا تنتظر مَعْطَلِيَّ؟ لاحق الثعلب، واسترجع صابونتي!

التلفظ بذلك سهل! كنت مخدرا تماما.. وكنت أسمع الحور العين يغنين في الجنان! ركضت في إثره بدون اقتناع، لمجرد رفع العتب.. استرجاع الصابونة يتطلب العثور على جحر هذا الثعلب اللعين.. لكن، ماهي إلا لحظات وتعفي الرياح أثره.. ولو جرت معجزة وعثرت على جحره، لابد إذن أن أخضع لقانون آلاَنْ وأتحول إلى يربوع، وأكتشف المغارة، وأفتشها بيتا بيتا، حتى أعثر على الغرفة الرئيسية. هناك سأجده يلعب بالصابونة، هذا إذا لم يكن قد التهمها.. وعندما يراني على فوهة جحره سيقول في نفسه إن هذه هبة إلهيه: «تفرجت على عري فتاة البعثة، واختطفت الصابونة المنعشة الرائحة، وهذا اليربوع يتمسح بفوهة جحري، يتمثل لي غداء دسما، غداء مازال يمشي على أربع!».. عندئذ سأتذكر واقعي الفأري، فأولي هاربا.. لكن سيكون الوقت قد فات، سيكون الثعلب قد أخذ يطحن جمجمتي بين فكيه... انتفضت، كمن نهض من كابوس مرعب.. كان قناص على رأس الكثيب يصيح بي، ويشير إلي بيديه أن تعال.. رجعت في اتجاهه.. وأنا مرتاح لأنني لم أصبح بعد يربوعا أسيرا في مغارة ثعلب.

ـ أعجل! أعجل! قُوسْتُبَاسْتَر يطلبك.. البعثة انطلقت!

ـ وصابونة فاله؟ إنني لم أعثر بعد على الثعلب...

ـ أنت مجنون! كيف يمكنك القبض على ثعلب في المجابات الكبرى؟ في هذا الهجير، وهذه الرياح؟! هذا يشبه مقيلك على قمة جبل الغَلاَّوِيَّة!

3
التركة

كان دليل البعثة قد أوقد نارا صغيرة.. الآن صار يركع ويسجد في صلاة غير موقوتة من النوع الذي لا ينتهي.. ثمة في أرجاء صمت المجابات الكبرى الكوني أزيز ينفذ من كل الجهات.. كنا نتهيأ للنوم.. كل واحد أخذ مجثمه، القناصة في جانب، وأنا وقَلْقَاَلَه في جانب.. وعلى مسافة قصيرة، انتصب السرير الوحيد في البعثة، وبجانبه قُوسْتَبَاسْتَر وفاله.. الباحث الأثري كان مصباحه مضاء وفي يمناه قلم، وبين يديه دفتر ضخم. اقتربت منه فاله ووضعت ذقنها على عاتقه تنظر في الدفتر، وسألته:

ـ ماذا تصنع؟

ـ أكتب في أوقات فراغي...

ـ أوقات انشغالك بالكتابة، من سينشغل بي أنا؟ سألته متدللة مغتاظة..

ـ الموضوع هو أنت، يا حبيبتي..

ـ كيف؟

ـ نعم أنت.. إنني أكتب قصتك...

ـ إيه؟ هذا رائع! اقرأ لي ما كتبت، أريد أن أسمع ما كتبت عني؟

ـ آآآ... آآ... ولكن ما أكتبه لم ينته بعد...

ـ لا بأس! دعني أسمع ما كتبت منه.. هيا، أسمعني، أرجوك!

ـ أَيْوَ... أَيْوَ... البداية كانت ليلة ليلاء، حينما كانوا يسمنونك..

» كان البدر قد طلع لتوه، مازال منعزلا في الأفق، كأنه تهديد غريب يتوعد الأرض.. يبدو أحمر قليلا كأنما يخجل من المثول أمام الكون، بعد غياب الشمس، كأنه يخاف أن ترجع من حيث غربت معلنة قيام الساعة!!

» كنتِ ـ في ذلك الوقت ـ تغمسين شفتيك العسليتين في قدح مليء باللبن وكنت تجدين صعوبة في الإمساك عليه بين يديك.. لم تكوني تستطيعين وضعه على الأرض، مخافة الحَرْطَانِيَّة القاسية التي تضغط على قدمك اليسرى بين فكي كلابة الزَّيَّارْ، لو وضعته فسيشتد الضغط.. كنت توهمينها أنك تشربين.. الواقع أنك تغمسين شفتيك فقط.. كنت تمعنين النظر في البدر الطالع، تفحصين باستغراب نقاط الكلف الداكن على جبينه الناصع.. فكرت أنها يمكن أن تشكل حروفا تحاولين أن تجدي لها معنى، كالمفسر الذي يحاول أن يعطي تأويلا لحروف فواتح السور القرآنية... فجأة، كدت تصعقين من الألم، لقد ضغطت الحَرْطَانِيَّة بقوة على كلابة الزَّيَّارْ.. خيل إليك أن قدمك تهشمت.. حصل لك ما يحصل لأي حيوان مستوحش يقبض الشرك الحديدي على رجله.. سقطت عيناك في قدح اللبن بين يديك.

» "فاله! هل تعتقدين أنك ستخدعينني! تريدين أن أبقى ساهرة إلى جنبك طول الليل، لأنك تماطلين في إنفاد لبنك؟!".

» هكذا صاحت في وجهك وهي تواصل الضغط على الزَّيَّارْ. حبست صيحة ألم كادت أن تدوي بين شفتيك وكاد القدح أن يسقط من يديك.. كان اللبن الأبيض يمتد في خيوط بيضاء طويلة على ذقنك ورقبتك، وفوق ملحفتك السوداء، التي تركت على بشرتك غشاء رقيقا من صباغتها المزرقة.

» "أناشدك رَيْحَانَه!، دعيني ألتقط نفسا قليلا، وقتا قصيرا، مجرد لحظة، طرفة عين.. إذا واصلت الشرب فسأتقيأ، القيء قريب!".

» "اشربي! واسكتي! لا أريد كلاما.. اشربي حتى ولو كنت ستتقيئين!"..

» هكذا قالت وبنبرة حاسمة لا تقبل أي جواب وقرصتك قرصة مؤلمة، كادت تطيح بلحمة حية من فخذك. أغمست شفتيك في القدح. بلعت مرة أولى، ثانية، ثالثة، بتقزز شديد، تأملين أن تحسي ارتخاء لذيذا في قبضة الزَّيَّارْ على قدمك..

» تحت خيمة الوبر، التي أضاءت نصفها الشرقي أشعة القمر الذي ارتفع قامة، كنت تلعنين الدهر.. كنت تحسدين أخويك الأصغرين النائمين من غير ثياب على طرف الحصير.. تحسدينهما على النوم بلا مبالاة، وكيفما يشاءان: «لماذا لم أخلق ذكرا؟ ما الذي جعل البنات يراد لهن السمنة؟ ربما لو كانت أمي هنا الليلة، لكانت أمرت رَيْحَانَه أن تنفس عني قليلا». أمكِ كانت قد لحقت بخيمة أهلها غاضبة من أبيك.. ترجاها أبوك كثيرا.. لقد تشفع بالعجوزين الشمطاوين الشديدتي النفوذ في الحي.. ولأول مرة خابت شفاعتهما.. أمك كانت عنيدة.. إحدى الشمطاوين

حضرت أمس إلى أبيك، بُوقَرْنْ.. أخبرته أن أمك توافق على العودة إلى بيت الزوجية، بشرط أن يقدم بين يدي عودتها ترضية خاصة تتمثل في أطقم معروفة من حلي وَلاَتَه. احتج أبوك على هذا المطلب:

» "المرأة ليست عاقلة! من أين لي بهذه الحلي؟ ليس لهذه الأنواع من الحلي سوق في هذه الأرض.. ووَلاَتَه في أقصى الدنيا!".

» "دبر أمرك! أنت تعلم أن ابن عمك شَنَّانْ قدم لزوجته ترضية أغلى من هذا."

» "الرضوخ لهذا الابتزاز هو الذي دمرنا.. لقد أصبح لزاما على كل واحد أن يقلد ابن عمه، حتى ولو كان وضعه لا يسمح!".

» "لن نسمح لك بالخروج عن أعرافنا! الترضية لابد منها وأنت تعلم ذلك جيدا."

«"أعرف! أعرف! لكن أنا لا أدري ما الذي أغضبها أصلا!".

» "هي تفعل ما يفعله النساء جميعا، لابد أن تغتاظ بين الحين والآخر، لكي تعرف إن كنتَ ما زلت تحبها"!

» "هذا غريب، مناف للعقل!".

» كان مَانُو يوقظ سيده كل صباح على ألحان أوتار التِّيدِنِيتْ.. غالبا ما يكون ذلك بنوتات قوية، قاسية، يهيمن عليها ائتلاف رِي ـ لا. كان الفنان دائما يلبس دراعة بيضاء من قماش قطني، ويعتم عمامة من نفس القماش، يدوّرها على رأسه ووجهه، كأنها ضمادة على حرق كبير.. كان في عمر الخمسين، يتقن فنه.. في ذلك اليوم استيقظ بُوقَرْنْ على مَانُو وهو يعزف "مَكَّ مُوسَ"، مدخل "كَرْ" من الطريق البيضاء في التِّيدِنِيتْ، مقام الشوق والحب؛ ألحان في تناغم أفقي تغلب عليه الدرجة الخامسة من

سلم دُو ويردد نغمتي رِه وفا#. كانت أمة شابة تضع إبريق الشاي على الفرن المملوء جمرا.. صبت الكأس الأولى.. أفرغها بُوقَرْنْ في بلعومه برشفة واحدة.. طعم الشاي المنعش أيقظ مكامن القوة في نفسه.. قرر أن يجهز جيشا للغارة على وَلاَتَه.

» "مَانُو! أريد منك أن تذيع في الحلة أني منطلق بجيش غدا في اتجاه الحوض، على أن يتجمع الرجال أولى ساعات الفجر عند الخيمة!".

» استدعى مَعْطَلِّ، العبد الشمري المجرب، الذي يرافقه في كل غاراته .

» "مَعْطَلِّ، أريدك أن تختار اثنين من الجمال، نحن ذاهبون إلى الغارة غدا قبل مطلع الشمس!".

» كانت نجمة الصبح مازالت ترسل بأناة خيوط لمعانها الفضي الآسر، عندما اكتمل الجمع أمام خيمتكم، نحو الثلاثين من الرجال المسلحين بالسيوف وبواريد القَشْمَه. كانت الجمال متقنة الأدب، لا يسمع لها صوت.. تفهم بالإشارة، تكتفي بنصف بركة، لتمكن الفرسان من اعتلائها بسرعة خاطفة.. كان مَانُو ينشد بصوت عال بيت حرب ويعزف أَسَرْبَاتْ، الإطار النغمي الذي يعبر عن الاندفاع، ويمنح الزهو والقوة والحماس.

» لما أعطى أبوك إشارة الانطلاق، غادرت الكتيبة الحلة، باتجاه الجنوب الشرقي.. كانوا يتغنون، يعيرون الكسالى المتخلفين عن الغارة:

» "*حَرْ الغِيدْ من رَجّالَتْهم لَمْسَنبْبِينْ ☆ دَفّايين لَمْعَاقَلْ شَرّابينْ اشْنِينْ*"

ويتمنون اليوم الذي يرجعون فيه إلى أهلهم وأصدقائهم، سالمين غانمين:

» أبوك لم يرجع بعد.. وما زال عندك عدة أقداح من اللبن يتحتم شربها.. كنت وحدك مع رَيْحَانَه وأخواك الأصغران النائمين.. الليلة الخريفية الحارة كانت مطبقة على الحي بلا رحمة.. والجو مثقل بالرطوبة. الموسم كان ممطرا هذا السنة.. النار في الموقد أمام الخيمة كان يحوم على ضوئها حشد من الحشرات.. صارت البروق تتخاطف في الأفق الشرقي، بينما كان مؤذن صلاة العشاء يدعو للفلاح.. البروق تشق غيوما كثيفة، داكنة، مظلمة، ما لبثت أن غطت كامل النصف الشرقي من السماء.. عصفت رياح عاتية، كثيفة الغبار والظلام، يتخللها لمعان البروق.. اقتلعت الرياح معظم الخيام.. وسادت الحلة فوضى وذعر شديدان.. كان النوء سريعا، فلم يجد الناس الوقت الكافي لتهيئة الخيام.. صيحات الرجال كانت تسمع، والأطفال يبكون، والنساء يصرخن، ويسترحمن الله.. عندما يضيء البرق على هذه الفوضى، يظهر وجهك النشوان لما فعله النوء الذي عبث بأقداح اللبن التي قلبتها الرياح، وتركت اللبن يسيل في كل اتجاه.. دوى الرعد وهطل المطر.. كنت في قمة السعادة لأن رَيْحَانَه نسيتك، وتتوسلين للمطر أن يظل هاطلا: "زيدي! زيدي!". تعالى حنين الإبل، وخوار البقر، وثغاء الشاء الجريحة بفعل أشواك الزرائب التي بعثرتها الرياح وأطارتها في الهواء... كانت الرياح قد ضعفت، فيما اشتد وقع المطر الذي استمر وقتا طويلا..

» رفعوا الخيام الساقطة المبللة على أعمدة قصيرة.. وراح بعضهم يبحث عن الماشية التي أفلتت ورضعها أولادها التي أطارت الرياح حظائرها.. كان كل شخص يفتش عن ثوب يابس، يبيت به ليلته أو عن وسادة أو حصير لم يطلها المطر، في انتظار طلوع الشمس.. كنت

المستفيدة مما حدث: انقلبت الأقداح وأهريق اللبن.. نمتِ بقية ليلتكِ مرتاحة..

» جميع أُسر الحي كان لهم ماشية، بعضهم أكثر ماشية من بعض، حسب مكانته في القبيلة.. كان أبوك يملك ماشية كثيرة وعددا وافرا من العبيد، من بينهم رَيْحَانَه التي كانت موضع ثقته، يسكنها في بيته ويعهد لها ببعض الشؤون الخاصة.. الحَلَّة كانت لها رحلة شتاء وصيف، من الزمور إلى الحوض، ومن الحوض إلى الزمور.

» أيقظك معلم القرآن مبكرا.. نهضت متثاقلة.. تفركين عينيك اللتين مازالت بهما بقايا النعاس بعد نوم عميق.. كان الضوء قد غمر الأرض، وتساوت الأشياء في الوضوح.. يوم جديد ككل الأيام، تزيد به أعمار الكائنات وتنقص.

» "فاله! قومي إلى لوحك!".. قالها لك حامد بصوته الأجش الذي تنطق نبرته بالوعيد!

» خرجت من الخيمة تتمايلين، تناولت اللوح ورحت تقرئين درس الأمس بصورة متلعثمة من بقايا النوم وكسل الأعضاء.

» "استعيذي بالله من الشيطان الرجيم واقرئي بإتقان!".

» أشعة الشمس الأولى صارت تلامس سطح الأرض. كان العبيد قد أخذوا في حلب الماشية.

» "أحضري اللوح والدواة!"

» دخلتِ تحت الخيمة، دون أن توقفي قراءتك.. أخرجت الدواة من تحت أَرَحَّالْ وأخذت اللوح المنجور من شجر آقْلاَلْ وناولته للمعلم مع الدواة. كان وجهَا اللوح مكتظين بالكتابة، غسل حامد أحد وجهي اللوح

في إناء وسمى الله وشرب الغسيل.. حرك الدواة فوجد أنها بحاجة إلى إضافة ماء قليل.. انتقى عودا من الثمام، وأتقن بريه بالموسى، ثم أحدث في رأسه شقا لطيفا يساعده على حمل الكمية اللازمة من المِداد عندما يغمس في الدواة.. وضع اللوح على فخذه اليسرى، وتناول القلم بيده اليمنى وراح يكتب..

» كانت أسْراح الماشية تغادر المراحات متباطئة، يحثها الرعاة. تعالت أصوات الأطفال بقراءتهم في ألواحهم، لا يطلق سراح أحد منهم ليأخذ فطوره من اللبن البارد، إلا إذا تمكن من إتقان قراءة لوحه.. لذلك كانوا يتنافسون في الرفع من أصواتهم.. أتقنتِ حفظ درس الأمس، وكنت ما زلت تعاودين قراءة درس اليوم.. كان معلمك ينصت إليك، ويصحح لك قراءة بعض الآيات، ويدربك على كيفية نطق بعض الحروف.

» أوقد الفرن ووضع عليه الْمِغْرَاجْ.. وعندما فار، هيأ الكُونْتِيّه.. أخرج منها الكاسات ووضعها في شكل هلال مضيء على طست من النحاس الأصفر اللماع، مزينة بالنقوش ورسوم الأزهار والأغصان المورقة.. وضع إبريق الرصاص ذا اللون الفضي في منحنى الهلال وأخرج السكر والشاي.. أخذ أحد الكؤوس، وغرف من مفتول الشاي إلى مستوى ثلثي الكأس .. صب الشاي في الإبريق وصب عليه قليلا من الماء المغلي.. أخذ أحد الكؤوس وكسر بها قطعة من السكر ألقى بها في الإبريق، وهو يفكر بقول ولد محمد آسْكَرْ: « *السَّكْرْ الدَّڤْدِيڤُ بَالْكَاسْ ☆كَانْ اڤْبَيْل أَلاَّ فِيهْ بَاسْ ☆وَمْنَادَمْ عَنْدُ مَاهُ عَاسْ ☆مَنْ كَرْ الّ إِڤُولْ السَّكَّرْ☆ بِيهَالّ كَرْ اتْجِيبْ النَّاسْ ☆ أُكَرْ اتْجِيبْ السَّكَّاكْ إِكَرْ ☆وَالّ وَيْلُ حَدْ ابْصَكْرُ ☆لاَبُدَّالُ بَنّْ يَنْكَرْ☆سَكْرُ وَمَّلّ لاَنَكْرُ☆ لاَبُدَّالُ مَنْ يَنْكَرْ كَرْ*».. أمهل السكر ليذوب، ثم وضع الإبريق قليلا على الجمرات المتقدة في الفرن ليستعيد الشاي سخونته..

سحب الإبريق وصب في إحدى الكؤوس، ثم أرجعها إلى الإبريق، لإحكام تخليط الشاي والسكر، ثم صب رشفة صغيرة رفعها إلى فيه وشفطها بصوت مسموع، أتبعها بنفس طويل مخلوط بما يشبه الأنين: طعم الشاي والسكر كانا يتنازعان الدورة الأولى.. كان طعم الشاي مهيمنا، لكنها هيمنة ستنهزم بشكل تصاعدي في الدورتين الثانية والثالثة، حيث تصبح هيمنة طعم السكر حاسمة.

» كنتِ تحبين هذا المشروب، ويفتنك لونه الأحمر الذهبي؛ تتابعين بانتباه التقلبات التي تطرأ على لونه من الأحمر الكميت إلى الأشقر الفاتح، ما بين الدورة الأولى والأخيرة.. الرغوة البيضاء التي تتوج الكؤوس، تذكرك بإطار الشيب الأبيض الذي يطوف هامة عجوز أصلع.. تمنيت أن تواتيك الجرأة، لتطلبي من حامد أن يعطيك كأسا.. ولكن من أين لك الجرأة؟ فالشاي محرم على النساء.. وعلى الصغيرات منهن خاصة.. شربته مرات نادرة، خلسة مع خادمتك رَيْحَانَه...

» أخذت الشمس تفقد سلطانها بقدر ما تميل عن كبد السماء، باتجاه مهبطها، خلف الأفق .. الظلال تطاولت متناسية منابعها الأصلية، كلما طالت كلما انخفضت نسبة الشبه بينها. كان هذا وقت خروجك مع صديقاتك للفرجة والرياضة وفرصة اللقاء في مكان بعيد عن أنظار الكبار.. غالبا ما يترصدكن في هذه الأوقات الشبان المراهقون.. كنت تنتظرين بفارغ الصبر هذا الوقت من النهار، الذي أصبح له بعد جديد في نفسك بعد ما بلغت الثانية عشرة.. أصبحت تفهمين الاضطراب الذي يحدثه حضورك عند الشبان، تفهمين معنى نظراتهم التي ترتع على جبينك وخديك وشفتيك، وتستحم في بحيرة عينيك.. تحسين لها دفئا منشطا يغري بالحياة وجمالها.. تعودت أن تصغي بلا مبالاة مصطنعة لعبارات

الإطراء التي يتفنن الشبان في إلقائها عليك.. كنت تتصدقين على أحدهم، بعد بخل طويل وبلا مبالاة ظاهرة، بنظرة خاطفة.. كنت تتلذذين في داخلك بالغيرة التي تصيب الآخرين عندما تخصين أحدهم بنظرة.. لقد نصحتك أمك أن لا تصدقي مع الرجال أبدا. كانت تقول لك دائما: "إذا أحببت رجلا، فلا تقرّي له أبدا بحبك! احتفظت المرأة بغريزة الكائنات الضعيفة: التظاهر بالحب عندما لا يكون ثمة حب، والتظاهر بعدمه عندما تقع فيه.. ذلك هو سر سلطة المرأة على الرجل!".. لكنك أنت كنت تحلمين برجل يمكنك أن تصارحيه.. يمكنك أن تقولي له "أحبك!" ويقدر أن يجيبك بهدوء "أعرف!"...

ـ كنت أحلم بك أنت!

»... بما أن الخيمة في هذا الوقت لم يكن بها أحد، قررت أن تتجملي على عجل.. فتحت علبة الحلي، أخرجت المرآة والمِرْوَد وحجر الكُحْل.. حككت المرود على الإثْمِد قبل أن تمرريه على خط أشفار الرموش.. تاهت عيناك في جمال عينيك.. كان الأصيل المتباطئ الذي ينسلخ رويدا رويدا يمضي، تبتلعه الأبدية، يحمل للأشياء شعورا بالكآبة، إحساسا بالعدمية المقتربة... خرجتِ متوجهة ناحية الشمال الغربي، تبحثين عن وجه أليف.. عندما علوت قمة الكثيب، رأيت جماعة الشبان والفتيات في الغوطة، لم يكن بإمكانك تحديد هوياتهم؛ فقط تميزين الدراريع من الملاحف.. كنت ما تزالين في منتصف الطريق، عندما استقبلك ثلاثة من الشبان.. سمعت موسيقى آرْدِينْ، المزهر النسائي في موسيقى البيظان.. كانوا متحلقين حول مُتِّينَه مَنْتْ مَانُو التي كانت تعزف لهم آرْدِينْ، وقد أسندت قائمته إلى منكبها، ممسكة بها بين الكف والإبهام، تداعب الأوتار بأناملها العشر، وقاعدة أردين إلى الأرض قرب حجرها.. قاعدة آردين عبارة عن قدح متوسط مغطى بجلد، مسلح بمجموعة من الجلاجل تصدر رنينا منتظما مع كل جسة وتر من الأوتار الاثني عشر، المثبتة بمسافات متساوية على عود أفقي هو بمثابة القطر في دائرة القدح.. ومن أحد طرفي

هذا العود ترتفع قائمة آرْدِينْ بزاوية منفرجة قليلا.. مع هذه القائمة تتسلق أعصاب الأوتار صعودا وبمسافات مضبوطة، بحيث تستطيع العازفة أن تؤدي جميع المقامات والأَشْوَارْ، دون أن تضطر إلى إعادة الدوزنة.. كانت مُنِّينَه تعزف موسيقى بيضاء نفّاذة، تجمع البساطة والعمق، تلامس مكامن اللذة في النفوس الشابة، التي كانت تفور في نظرات ندية.. وكانت تغني طَلْعَه من لَبْتَيْتْ على ألحان آرْدِينْ:

» *"قُولْ الْفَالَه مَعْمُولْ اعْلِيهْ ☆لَخْبِيطْ إِلَ عَادَتْ تَبْغِيهْ*

اخْبِيطْ الوَاقِ مَخْبَرْ فِيهْ ☆أُمَخْبَرْ فَخْبِيطْ الرَّمْقَانِ

أُنَعْرَفْ زَادْ الشُّورْ الّ فِيهْ ☆اخْنِيفْ الْمُهْرْ الفَوْقَانِ.."

» مع ارتقاء الشمس على مدراج عرشها، تبخرت قطرات الندى التي خلفتها نسائم السحر على الأعشاب.. تقلصت الظلال شيئا فشيئا، راجعة إلى منابعها وهبت الرياح الشرقية الحارة، المحملة بصغار الذباب العضوض، إِتِيتْ، الذي يتجمع على جروح الدواب، يمتص دماءها.. تسمر الناس في ظلال الخيام من شدة الحر.. الجو القائظ المضيء أصبح لزجا.. موجات الحرارة ولمعان الضوء شكلت بحرا من سراب.. تباطأت الحركات وتميع الهواء، مجال النظر صار بحريا. كنتِ في هذا الوقت تمسكين بقدح لبن الضحى تحت مراقبة رَيْحَانَه التي لا تنام..

» "رَيْحَانَه، شُوفِي ذُوكْ بُويَ جَايْ امْعَ الْغَزِّ!"

» عرفتِ أباك من بعيد على جمله الأبيض، كأنه ربان يصارع شراع سفينته.. أناخ الجمل أمام الخيمة وقفز عن الرحل.. ترك الجمل للعبيد الذين تواثبوا لاستقباله.. نزع أحدهم الحقيبة الجلدية المثبتة خلف الرحل، لينة مزينة بأشكال هندسية ملونة سوداء، حمراء، صفراء.. علائقها الملساء، من رقاق الجلود المختارة، محكمة الفتل.. ثم حل غرض الرحل،

ونزع اللبدة. حمل الرحل والحقيبة إلى داخل الخيمة، وأخذ آخر بزمام الجمل إلى خارج الحَلّة وقيده.. أسرعت رَيْحَانَه إلى الفرن توقده، ونصبت الْمِغْرَاجْ.. أحدث مجيء بُوقَرْنْ حركة في الحَلَّة؛ خرجوا من خَدَرهم رغم شدة القيظ، ينظرون، يتشوّفون.. بعضهم كان يعرج على خيمة أجدادكِ.. كان الهدوء قد عاد إلى الحي عندما صبت رَيْحَانَه الكأس الأولى؛ وطأة الشمس أعادت لكل خيمة أهلها، وأرغمتهم على السكون.. رجعوا إلى نعاس القيلولة.. أحدثت نكهة الشاي القوية انحسارا في ما كان يشعر به بُوقَرْنْ من وعثاء السفر...

» بعيد صلاة المغرب، وبعدما كانت الأسراح قد عادت إلى مراحاتها وامتلأت بها عرصات الخيام، جاء الناس إلى خيمة بُوقَرْنْ: عجائز متنفذات، شديدات الاعتداد بآرائهن، صارمات في ما يعن لهن من الأمور، يحتفظن رغم كهولتهن ببقية جمال؛ وإماء تنبئ روائح العرق الفائحة منهن عن يوم مشحون بالشمس والتعب؛ وأطفال يحركهم الفضول الزائد، كأنما يرون الناس والأشياء لأول مرة؛ وعائلة أهل مَانُو التي أحضرت عتادها الموسيقى: التِّدِينِيتْ، آرْدِينْ والطبل.. النار الموقدة أمام الخيمة تضيء الوجوه بداخل الخيمة ومن حولها كانت الأرض غارقة في ظلام كثيف والسماء مزينة بأعداد لا حصر لها من جواهر النجوم اللماعة؛ بين الحين والأخر، تنطلق واحدة منها مسرعة مخلفة وراءها ميسما من نور على جبين السماء. لكن، لما يظهر القمر، ستنير نظراته ظلمات الأرض، وينفخ في الأشياء من روحه.. كانت إحدى الإماء تقيم الشاي في طرف الخيمة.. وجهها الآبنوسي يعبر عن عناء متوارث منذ القدم، يحتج عليه بيأس قانط الضوء الملتمع في عينيها المتقدتين.. الفنانون كانوا يطيبون آلاتهم في كَرْ، مقام الشباب والاستمتاع والفرح، الذي يفتتح السلم الموسيقي البِيظَانِي.. كانت الألحان والنغمات المندمجة معها، تعبر عن قسوة في لين، هي من خصائص مداخل الطريق البيضاء في

التِّدِينِيتْ.. جاءت أمكِ تتهادى بين اثنتين من مَاتْرُونَات الحلة.. نظر إليها أبوك دون أن يخاطبها وصرف نظره عنها بسرعة، احتراما للتقاليد.. لكن، عندما يتفرق الملأ ويخفت الضجيج، ولا يبقى من كل ذلك غير بصماته الخفية في الهواء، سينفردان في الظلام، ليس معهما غير أطفالهما النيام.. حينئذ سيكون بإمكانه الكشف عن مدى فرحته باللقاء، بعد غيظ وفراق، وتكونين أنت حاضرة، يفر من عينك النوم، تحاولين أن تحبسي نفَسك الذي يشتد ويتسارع...» توقف قُوسْتْبَاسْتَر عن القراءة، أطبق دفتره وأعاده إلى الحقيبة..

ـ إلى هنا وصلت..

ـ كتابتك رائعة! أنا أحبها!

قبلته على خده المكسو بالشعر، واحتضنته بين ذراعيها، في حركة مفعمة بالحنان. أطفأ مصباحه وصعد المتكأ.. قفزت إلى جانبه واختفت في حضنه.. راح يهدهدها بين جناحيه، فتصدر عنها قهقهة خافتة، كتكتكة الديكة، لاهثة من الشبق.. فيما كان القناصة يلوثون نسائم الليل بشخيرهم كالذبائح.. عيناي اللتان تحررتا من ضوء مصباح البَطْرُونْ انصرفتا نحو السماء...

4
محنة

كان المعرس هامدا تحت الرياح المتربة العاتية.. ظهورنا إلى الشمال.. الرياح المثقلة بالرمال لم تضعف رغم هبوط الليل.. القمر لا تنفذ إليه الأبصار، حالت دون رؤيته طبقات الغبار المتراكمة في الجو.. استمرت العاصفة أياما.. كنا جاثمين في نفس المكان، لا يمكن أن يخطر ببال أي مجنون أن يتحرك ما لم تتوقف العاصفة.. اختلطت السماء بالأرض؛ درجة الحرارة ترتفع وتنخفض بصورة مذهلة في هذا البحر الرملي، الذي يتحول إلى صقيع بالليل وجحيم بالنهار.. تخرج يدك فلا تكاد تراها.. كل شيء مطمور.. الجمال والأمتعة والناس كانت مُقَرَّنَة جميعا بحبل واحد، لكيلا يضل بعضها عن بعض، وتطمرها الرياح، فلا يبقى لها أثر.. على فترات متقاربة، كان قُوسْتُبَاسْتَر يصيح صيحة يسمع لها صدى خاطف قبل أن ترحل بها الرياح، فيخرج الجميع من تحت الرمال التي تكون قد طمرتهم؛ يستخرجون الأمتعة ويوقفون الجمال ثم يبركونها.. ويعودون إلى مجاثمهم ريثما يسمعون صيحة أخرى للبعث من القبور.. دواليك ..خلال هذه العاصفة، أغرتني عرائس بحر المجابات

الكبرى. حاولت مرارا أن أتملص من الحبل الذي يشدني مع الآخرين والجمال والأمتعة، وأطلق ساقي للريح المولولة، فأذوب في بحر الرمال مرة واحدة.. لكن قُوسْتُبَاسْتَر كان يحس بحركة الحبل، فيصدر أمرا بالشد إلى الذي يليه، ومنه إلى غيره وهكذا إلى أن يعم أمر الشد والحذر عليهم جميعا...

ـ أف لك من أرض! دمدم بها قُوسْتُبَاسْتَر محاولا أن ينفث ما استطاع من التراب الذي ازدرده مع جرعة الماء العفن.

ـ الأمر ليس كما عهدت! نطقتها فاله من تحت ملحفتها المردومة بالتراب.

خفت الرياح شيئا فشيئا ثم توقفت.. انتهت العاصفة وأسلمت ميراثها من الأشكال الرملية للهمود.. وبُعث المعرس.. نسل من الرمال التي طمرته وانحل القران.. استعادت الأحياء هامش حركتها الوهمي.. قبل الغروب كانت الدنيا قد استعادت عافيتها.. رجع الجو إلى صفائه، وسكونه، وسكينته.. صارت نظراتنا تغرق في زرقة السماء العميقة المضيئة، كأنما غسلها المطر لتوها.. كان القناصة يحفرون الأرض، ينبشون عن أعواد الحاذ اليابسة، يوقدون بها النار.. فاله تنفض استعدادا لحمامها من دون صابون.. أحد النُّحَاسِيِّين، جاءنا بغزال اصطداه مطاردة.. عند العشاء كانوا يأنفون من طحين القديد، استطعنا أن نشرب كأسا من الشاي لم يلوثها الغبار.. كانت الأفواه تستقبله بحذر، لكثرة ما أرادت أن تشرب أي شيء فإذا هو تراب...

مرحلة اليوم كانت أصعب المراحل، بسبب العوكلات المتشابكة التي ليس لها ممرات.. حتى القيعان والتلال تشابكت فيها الربوات الرملية التي تفصل بين إحداها والأخرى أغوار سحيقة.. كانت الرمال الضاربة إلى البياض تبتلع أقدام السائرين إلى الرُّكَب.. الحفر مملوءة بنباتات بُوقْنِيَّه والحاذ. قطعان الغزلان والمها كانت تمر بنا غير خائفة، تتحدانا كأنها تعلم أننا لسنا قادرين على إصابتها بأذى.. في الصباح، بينما كنا نستعد للانطلاق ومواجهة هذه المرحلة القاسية، تمثل لي الشيطان في هيئة مارد أقرن.. رأيت الشمس تطلع من بين قرنيه.. تحولت سكينة الصباح وحيويته إلى كآبة كسول.. عالمي صار سوداويا.. البارحة، لما كنت نائما، رأيت قُوسْتُبَاسْتَر يملأ عيني من طحين الملح، لأتيه في المجابات الكبرى.. وفاله التي حاولت أن تطبق علي قانون آلاَنْ وتحولني إلى يربوع... لكن داهية الدواهي هي هذا التتالي في الأيام والليالي.. هذا السيلان البطيء الدؤوب للزمن الغادر الذي ينذر بالشر. وهذه الرمال ذات اليمين وذات الشمال وفي كال الجهات، بحر هائج نحن في مَجهَل من مجاهله، يمكن أن يبتلعنا كالحوت في كل لحظة...

في إحدى الليالي، وبينما كان المعرس يستعد للنوم، دعاني قُوسْتُبَاسْتَر لنستأنف نجوانا الانفرادية.

ـ ألا تزال بيننا الثقة؟ سألني كما لو كنت حرا مختارا.

ـ لا شيء غير الثقة!

ـ استلق على قفاك.. ارتخ في جسدك.. فرغ خاطرك من الأفكار، ركز بصرك على السماء! ترى تلك النجمة اللامعة هناك؟ ثبت بصرك عليها.. ركز عليها كل اهتمامك، لا تترك بصرك يبرحها.. غابت عن

بصرك بقية النجوم.. أنت الآن في حالة جديدة.. سترد على منبهاتي الصوتية.. حدث تغيير في وعيك، وفي ذاكرتك.. أنت الآن أكثر إحساسا بإيحائي.. ستعطيني أجوبة وأفكارا لم تتعود عليها.. ستدخل في نوم يسمح لي بالتفاهم معك سوف تنام.. تنام.. تنام.. أنت نائم الآن!

ـ لا لست نائما! قلتها وأنا في كامل وعيي..

ـ إذا لم تنجح العملية.. لا فائدة من تكرار تجربة فاشلة، سنتبع طريقة أخرى.. ابق مستلقيا ارتخ في جسدك.. أغمض عينيك، تكلم لي بكل حرية.. قل لي كل ما يعبر ذهنك من أفكار، بدون أن تصادر منه شيئا.. اترك الكلام يسيل عفوا، وبلا تدخل.. حرر كلامك من رقابة وعيك.. تكلم!

ـ أنا لست مرتاحا.. ثمة شيء ما يشغلني... يزعجني لا أدري ما هو... أحس كأن عقلي لحد فارغ تولول فيه الرياح... أحس بشيء ما ينقصني أو شيء مهم أنتظره... وعيي يراوح في دائرة مغلقة، حلقة مفرغة... أنا ضائع بين الوهم والحقيقة، بين الوعي واللاوعي، كقطعة نقد بين وجهيها... تتعاطاني وضعيتان كل منهما أغرب من الأخرى، مستحيل أن أحكم على إحداهما بتمعن، وأنا في الأخرى.. في كلتيهما مناطق غامضة تنفي الأخرى في بعد أخر مستحيل المنال... أنا مرآة بين عالم الواقع، وعالم العجائب، مرآة لها وجه واحد، تتنازعها آلِيسَتَان صنديدتان... حياتي، وأنا صاح، وهم أغرب من أحلامي في المنام... عقلي في النوم أوضح منه في اليقظة! أنام مستيقظا، وأستيقظ نائما.. أوامري إلى نفسي في المنام تصبح لاغية عندما أستيقظ! أمور كثيرة تشغلني في وقت واحد: المِهذار المجنون الذي لم ينبس بحرف، لست أدري ماذا يخبئ لي.. والشمس لا أعرف لماذا طلعت لي من بين قرني إبليس.. وأنتم، ما لي ولكم؟ ما لي ولقافلتكم الغريبة؟ لماذا أخذتموني من قمة جبلي؟ تعتقدون أني قادر على أن أدلكم على أوْدَاقُوسْتْ؟ لا علم لي

بشيء من أمر هذه المدينة الشبحية التي اعتقدت أن أسمها يوحي لي بشيء ما، قبل أن أعي أن ذلك كان بسبب رنة فيه تذكرني باسمك...

ـ واسمي أنا، قُوسْتُبَاسْتَر، يوحي لك بماذا؟

ـ يوحى لي بالآخر، المقَنِّن، مؤسس المحرمات، مَوَّارْ الفَيَافِي، الأب الذي يفتح حيز النقص، الزَّوْزَالْ...

ـ وماذا أيضا؟ بأي مكان يذكرك اسمي؟

ـ ... يذكرني بغوطة دائرية ملأى بالعبيد وبالدور الكبيرة النائمة في الحدائق.. مدينة ملأى بدخان البخور والأذانات المختلطة بأنين الصبيان والكهول الذين يموتون عطشا...

ـ إذن هو يذكرك بِأَوْدَافُوسْتْ؟

ـ أَوْدَافُوسْتْ؟ لا أرى علاقة! قُوسْتُبَاسْتَر... قُوسْتْ... أَوْدَافُوسْتْ...

ـ تكلم لي عن أحلامك!

ـ أحلامي؟ غالبا ما أنساها.. الأحلام التي تتكرر أتذكر جزءا منها أحيانا... هل ستفسر لي أحلامي؟

ـ لن أكون أكثر منك فهما لأحلامك.. لن أفسرها... سأتركك تأتي بمواد أحلامك، لكي أساعدك على فهمها.. لكن يجب أن تعرف أن كل سكتة تسكتها تنطوي على حديث الآخر.. وهذا الحديث هو ما يهمنا أن نسمعه.. قل لي الآن ماذا تتذكر من أحلامك!

ـ في أحدها رأيتني وقد أوقدت نارا ضخمة في غور بين ربوتين.. لما خمدت ولم يبق إلا الرماد، جمعته في ملحفة فاله، وجئت إليها به أثناء استحمامها.. لكنها عندما رأت الرماد غضبت، ونثرته على رأسي... ثمة

حلم أغرب من هذا يحيرني دائما: أراني وقد انقسمت نصفين! أصير كالحيوانات التي تتكاثر بالانقسام. يبدأ ذلك من الرأس، فيصبح عندي رأسان، وأربعة أجنحة، وصدران، وعمودان فقريان، وأربع أرجل، أنفصل رجلين.. أبقى مجرد إحساس ضائع بينهما، أحاول دمجهما في واحد.. لكن عندما أجمع الرأسين والأجنحة وأشرع في محاولة دمج الأرجل والجذعين، ينتهز الرأسان والأجنحة الفرصة وينفصلوا! والعكس.. أثناء محاولات الدمج الفاشلة أجدني أحيانا في تشكيلات غريبة: أجدني مرة مدورا، ظهري وكرشي دائريان، ولي أربع أيد ومثلها من الأرجل ووجهان توأمان على رقبة دائرية، وذكَران ولواحقهما المضاعفة.. أمشي مستقيما في أي جهة شئت، كحالي الآن.. وعندما أبلغ قصارى جهدي في الجري، أجد نفسي بهلوانا يدور على أربع أياد، ورأسين، وقوائمي مشرعة في الهواء! من جديد أفصل الأعضاء كي أحاول تركيبها بشكل صحيح.. أبدأ بتركيب وترتيب كل نصف على حدة.. لكن ما إن يتم تركيبهما حتى يفرا من بعضهما كل في اتجاه.. ليس بينهما من يرغب في الاندماج بالآخر، كأنما تواصيا بإفشال كل محاولات الدمج بينهما.. بعد اليأس الطويل ألهم أن أسمي الله.. حينئذ أجدهما يقتربان من بعضهما، يتعانقان، فأوقن أنهما سيندمجان، لكني أستيقظ دائما قبل أن يتحقق الاتحاد... مرة رأيتني أرافقك في سفر طويل، إلى وجهة مجهولة، على طريق طويل مرصوف بالملح.. كلما عييت أقف وأترجاك للرجوع إلى بلدنا.. فتضربني ضربا مبرحا وتشد يدي بحبل تجرني به، وتبول على وجهي... خلال فترة العاصفة كان ثمة حلم يراودني باستمرار: أكون تائها في المجابات الكبرى، أبحث عن صابونة فاله، أعلق على كتفي حبلا قويا مطويا، أرى الثعلب على رأس ربوة، فأمسكه ركضا وأروح أخنقه بالحبل.. لكن عندما يموت، أكتشف برعب أن الذي كنت أخنقه هو أنت! أدفنك في التراب، وأرجع إلى المعرس، وآخذ مكانك...

ـ ماذا تتذكر عن أبيك؟

ـ أبي؟ لا أذكر عنه شيئا... لست واثقا من أن لي أبا!

ـ لكنك تبدو مستوعبا للصورة الرمزية للأب.. يبدو أنها تحيلك إلى منحى سوداويا! تثير سوداويتك!

ـ سوداويتي؟

ـ نعم سوداويتك.. هي التي نبحث عن سببها... يكفي هذه الليلة.. تستطيع أن تذهب للنوم..

عيناي كانتا ملآنتين بالنجوم عندما انتصرت آلِيسْ الأخرى.. استرجعت الوعي بهويتي، وأدركت وجودي في اللازمان، وعثرت على أجوبة لكثير من أسئلة قُوسْتَبَاسْتَر.. عزمت على أن أقول له اسم أبي عندما استيقظ «افَّارَا مُولْ! كيف نسيت اسم أبي؟ وإذا كان قُوسْتَبَاسْتَر يريد أغوار سوداويتي، فسأوسع له المجال.. سأجعله يشبع منها.. كهفي ممتلئ سوداوية إلى حد الفيضان! مبدأ وجودي أصلا هو أكبر صدمة في حياتي، حياتي ذاتها هي ذنب عظيم لا يغفر.. وأبي الذي أوقعني في وثاق القافلة الصحراوية.. وهاجس قتل الأب الذي يراودني.. وفشل ثورة العبيد في أَوْدافُوسْتْ.. والقافلة الأبدية بأسيادها وعبيدها في المجابات الكبرى.. تصور أني هربت تسعة قرون لأتخلص منها، فإذا بي أهرب منها إليها.. وهذا ملك الزمن الذي أنقذني من جحيم ليلقي بي في جحيم آخر.. ما فائدة الانتقال من زمن إلى آخر، إذا كان البشر يرذلون في كل الأزمنة، يزيدون رذالة على رذالة مع كل حقبة زمنية؟ إلا إذا كان المستقبل البعيد... لكني لا أريد أن أغادر الآن قافلة قُوسْتَبَاسْتَر.. لابد لي أن أقوده إلى الطلل الذي يبحث عنه وأتعظ من غرور البشر... قد يكون الأصلح بالنسبة لي أن أهرب في الصحراء، وأموت على قمة جبل مرة واحدة، وأضع حدا لهذه المهزلة.. لكني كنت أقول لنفسي دائما: "انتظر قليلا حتى تطلع على ما هو آت" وانتظر... على كل حال، أنا لست مخيرا لا هنا ولا هناك، نائما

أو مستيقظا حيا أو ميتا.. كلها تقع وحسب، ليس لي عليها سلطان.. عندما استيقظ لا أعود أعرف من أنا، أُبتَر من ماضي ومن حاضري، ولا أعدو أتذكر شيئا.. مهما عزمت وأنا نائم، لن أتذكر شيئا عندما أستيقظ.. تصرفاتي في اليقظة لا إرادة لي من ورائها.. إرادتي وهمية، توجد وراءها إرادة أخرى.. لا أعرف من أنا.. الدوافع التي تحركني لا أعرفها، لا أتحكم فيها.. أفعالي، وأفكاري أضغاث أحلام خاوية بلا معنى... ».

عند الانطلاق هذا الصباح لا حظت أن العوكلات الرملية قلت، واستطالت الكثبان واتسقت. سفوحها الخفيفة الانحدار تصب في قيعان ملآى بنبات الحاذ. لون الأرض أصبح رماديا.. تضاءلت الكثبان الرملية وأصبح السير أقل مشقة مما كان.. رحلة آخر النهار اليوم كانت أقصر من المعتاد.. عرسنا على ظهر كثيب، والشمس ما زالت تلوح في الأفق.. الضوء والظلام يتقاسمان وجه المجابات الكبرى الذي أصبح أليفا.. في صفاء الهواء وسكونه، بدت الأشكال العارية سكارى بعد إفلاتها من قبضة الشمس.. انفرد قُوسْتُبَاسْتَر على أرفع نقطة من المعرس ونادى علي.. رحت إليه وأنا أحس أن مزاجي معكر! جاءت فاله وجلست إلى جانبه، شاخصة إلى الشمس التي طغى عليها الاحمرار..

ـ اجلس هنا بين يدي! قالتها فاله بنبرة من يعرف أن أوامره نافذة حتما..

كنت أنظر في عينيها.. أبحر في صفائهما المضيء، كسماء غسلها المطر.. لم يكن بوسعي أن أعرف إن كانت تنظر في وجهي، أم تتابع مأتم غروب الشمس.. كنت أرى قرص الشمس منعكسا في سواد بؤبؤ عينيها اللماع، كأنما تحاول إطفاء الشمس في عينيها... أخذت تهدهدني بصوتها الرتيب، المتغلغل في كياني..

ـ أنظر في عيني، لا تبرحهما! ركز اهتمامك فيهما، لا تفكر في شيء آخر! صرت في حالة جديدة، حدث تغيير في وعيك وفي ذاكرتك.. اشتد إحساسك بمنبهاتي الصوتية.. سوف تعطيني أجوبة وأفكارا ليس لك بها عهد! ستدخل في نوم يسمح لي بالتواصل معك.. سوف تنام.. تنام.. تنام...

استيقظت وأنا مستلق، ولهيب كوني طالع من الأفق يبتلع السماء رويدا رويدا.. وما لبثت الشمس أن لوحت بقرنها. صرخت من الرعب:

ـ الشمس تطلع من مغربها!؟ هل هي الساعة؟

ـ لم تعد تميز الجهات؟ الشمس طالعة من مشرقها!

«إذن هي نومتني الليلة كلها؟».. قُوسْتُبَاسْتَر كان منكبا على الكتابة في دفتره.. وفاله متكئة على الرمل تمتص منه برودته الصباحية.. كان وجهها موسوما بشحوب ليس من عادته وتشع من عينها الكسلاوين حمرة اللهب الطالع في الأفق.. كانت حاسرة ملحفتها عن كامل ذراعيها، كأنها قابلة تخرج حياة جديدة إلى الوجود! كنت مرهقا، كسلان، أشعر بالخواء في داخلي.. حاولت أن أتذكر شيئا عن الليلة الماضية.. لم أجد شيئا.. وجدت ذاكرتي بئرا بلا قعر، بئرا في الفضاء.. توقف قُوسْتُبَاسْتَر عن الكتابة، أودع دفتره في الحقيبة..

ـ سيقولون إني مشعوذ! قالها بصوت مبحوح.. كأنما يكلم نفسه.. لكن معطياتنا كلها تتفق مع هذه الشهادة القادمة من اللازمان.. لقد أكدت معلوماتنا السابقة عن أَوْدافُوسْتْ، حتى إنها سدت الثغرات التي كانت موجودة فيها، والحلقات المفقودة منها.. إذا لم يقتنعوا بما سأقوله ستبقى الآثار شاهدا لي، سأكون أنا الذي نجحت فيما فشلوا فيه دائما، سأكون أنا

الذي اكتشفت آثار أَوْدافُوسْتْ. سأضع الصور أمامهم والكشوف الطبوغرافية للموقع.. ولن يكون بوسعهم أن يصادروا مني هذه المفخرة!

نهض إلى فاله.. قبلها بحرارة واحتضنها بين ذراعيه..

ـ شكرا حبيبتي! الفضل راجع إليك في هذه الاكتشافات البكر.. تصوريي، سأكون أول باحث أثري في التاريخ يعثر على كائن من اللازمان! ودعك من الإشكال الكبير الذي وجدت له حلا الآن: إشكال أَوْدافُوسْتْ وغَانَا..

كنت حائرا، أتساءل: «ما الذي حصل البارحة وملء قُوسْتْبَاسْتَر فخرا واعتدادا إلى هذه الدرجة؟ من أين هبطت إليه المعلومات التي طالما ركض وراءها؟ أين هو الكائن اللازماني الذي يتحدث عنه؟ وفاله، ما الذي صنعت البارحة، فاستحقت هذا الإطراء غير الغزلي؟»..

في ذلك اليوم لم يُحمّلوا القافلة.. بدلا من الرحيل نصبوا منذ الصباح الباكر خيمتين في منحدر الكثيب.. كنت مع قُوسْتْبَاسْتَر وفاله و قَلْقَالَه والدليل في إحدى الخيمتين.. كان قُوسْتْبَاسْتَر يتكلم عن "تعديل في البرنامج" وعن تغييرات في الطريق التي سنسلكها.. وكان يتكلم عن معلومات زوده بها شخص ما يدعى قْارا.. يا له من اسم غريب! إنه كما لو سموا أحدهم "تَيَارَتْ" أو "كَدْيَة" أو "ربوة"...

ـ ... طريقنا ستكون على النحو التالي، قالها قُوسْتْبَاسْتَر مخاطبا الدليل: سنيمم شطر تِجَقْجَه وهناك نجمع ما أمكن من التقاليد المروية، عن أَوْدافُوسْتْ وغَانَا.. من تِجَقْجَه نهبط نحو تِشِيتْ، ونجتاز اظْهَرْ من مقطع إِيمْدَلْ ونسير مع سهل تَاسْكَاسْ الذي يؤدي إلى نُدَاشْ.. وهناك، إذا صدق قْارا، سنعثر على أطلال أَوْدافُوسْتْ.. في تِجَقْجَه، سنتزود ونستبدل

الجمال.. الوضع في المدينة جيد الآن، كُوبُولاَنِي استقر هناك ويشيد حصنه؛ سيعطينا كل الدعم الذي نحتاجه...

افترسني النوم، كأنما مضت علي دهور وأنا ساهر.. وفي الحلم وجدت نفسي متكاملا، في تشكيلتي الطبيعية هذه المرة: «1323 بعد الهجرة! قُارا، كائن من اللازمان! هذا أنا! كيف لم أعرفها؟ كيف لم أعرف اسمي؟ صحيح أني لم أفكر أبدا في معنى اسمي: "أثر قديم"، "تل بقي شاهدا على طبيعة مضت"! هذا اسم غريب! إذن، أعطيت أخيرا لفُوسْتْبَاسْتَر المعلومات التي لطالما أرهقني بحثا عنها؟ كم مرة صممت في حلمي أن أحدثه عن أَوْدافُوسْتْ ولم أفعل... لكني لا أتذكر أني قلت له شيئا يتعلق بهذا الموضوع.. واسمي! كيف عرفه؟ أنا لم أقل له شيئا! وأنا أصلا لم أكن أعرف اسمي.. هل جاءه الخَضيرْ هو أيضا، وأعطاه الخبر؟ ماذا كان دور فاله في ما حصل؟ لماذا هدهدتني بصوتها العذب الرتيب، وأنامتني في عينيها الصافيتين؟...»..

وصلنا إلى تِجَقْجَه.. وجدنا المدينة قد تحولت إلى متحف للفظائع: الجثث المحترقة معلقة من أعناقها بحبال قصيرة في جذوع النخل، تتأرجح في ألسنة النيران المستعرة تحتها.. البَرْتِزَانْ والقناصة استقبلوا القافلة، يتراكضون ويصيحون:

ـ قتلوا النّصْرَانِ! قتلوا كُوبُولاَنِي!

ـ دخلوا البارحة في الحصن، وقتلوه بطلقة محكمة التسديد!

ـ قتله شريف!

ـ مريد لشيخ اسْمَارَه!

ـ سِيدِي وَلْ مُولاي الزَّيْنْ! قالها رجل نحاسي بصوت مختنق أجش، يمتزج فيه الألم بالافتخار.

تصلب قُوسْتُبَاسْتَر، تجمد الدم في جسمه.. على سطح إحدى الدور، كانت ثمة عجوز تنشج، تولول.

ـ نحن لم نشارك في ما جرى.. لقد شنقتم وحرقتم أبرياء كثرين وأطلقتم السَّيْبَه في مدينتنا. قناصتكم وبَرْتِزَانكم اغتصبوا نساءنا وعاثوا فسادا!

ـ النقيب افْرِيرْجَانْ تولى القيادة وأعلن الحرب على المدينة منذ البارحة وهتك الحرمات!

ـ امضوا بنا إلى النقيب! قالها قُوسْتُبَاسْتَر لأحد البَرْتِزَانْ الذين استقبلونا..

سار بنا البَرْتِزَانِي عبر وادي النخيل، وصعد بنا مرتفعا مطلا على المدينة، كان على قمته حصن لم يكتمل بناؤه بعد.. في الساحة عند المدخل، كان ثمة عدد من الشيوخ مكبلين بالقيود، موثقي الأيدي خلف الظهور، لحاهم غائصة في الرمال.. التحق بنا ضابط مديد القامة، عريض المنكبين، قاسي الملامح، في وجهه عروق بارزة.. تلمع على عاتقيه نجوم ذهبية متلألئة. صفق إحدى كعبيه بالأخرى وحمل رؤوس أصابع يده اليمنى المبسوطة إلى صدغه في حركة آلية:

ـ النقيب افْرِيرْجَانْ! قالها بصوت جهوري، تشي نبراته عن هواجس عدم الاطمئنان.. مد يده للباحث الأثري مصافحا.

ـ إنها مصيبة جلَّى! لابد أن المفوض سبق وأن حدثك عني.. أنا قُوسْتُبَاسْتَر، قائد بعثة البحث الأثري التي انطلقت من أطار، منذ نحو شهرين.. كُوبُولاَنِي كان مهتما بأبحاثي للعثور على مدينة

أَوْدافُوسْتْ.. الآن فقط علمت بالنبإ المؤلم، أنه قتل البارحة.. لقد فقدت بموته أحد الرجال القلة المهتمين بأبحاثي!

ـ أهلا بكم في تِجَفْجَه يا سيد قُوسْتْبَاسْتَر! ولو أنكم تأتونها في لحظة صعبة.. الفقيد المفوض كلمني عنكم مرات عديدة.. كان متشوقا لأخباركم لأنه لم يسمع عنكم شيئا منذ غادرتم أَطَارْ...

الجمال كانت ترغي وتتململ، وهم يحطون عنها الأحمال..

ـ من يكون هؤلاء؟ سأل قُوسْتْبَاسْتَر وهو ينظر إلى الشيوخ المكتوفين في الشمس..

أجابه افْرِيرْجَانْ بصوت رزين:

ـ هؤلاء هم وجهاء المدينة.. اعتقلتهم جميعا اليوم.. لن أطلقهم إلا بعد أن يصرحوا بالمعلومات الكاملة عن الإرهابيين الفارين ويدلوني على أوكارهم!

مع قسوة عذابهم، كانت تبدو على وجوه الشيوخ، وفي نظراتهم روح الاعتزاز والافتخار بأنهم أوقفوا ذلك الحلم الاستعماري المغرور..

ـ نجح الإرهابيون إذن في الفرار؟

ـ بعضهم، لانعرف عددهم بالضبط.. نظن أنهم نحو العشرين على أقل تقدير... لكن دعك من هذا الآن! سنتحدث فيه لاحقا، عندما تأخذون قسطا من الراحة! أستسمحكم مسبقا عن النقص الذي قد تلاحظونه في وسائل الراحة.. سنبني لكم خياما، طالما أننا ليس لدينا ما هو أفضل...

5

العتق

عندما التقيت بنفسي في النوم أول ليلة في تِجَفْجَه، وجدت صعوبة في تقدير حجم الكارثة: « شخص يقطع تسعة قرون والمجابات الكبرى كاملة يبحث عن الخير، ثم ينتهي به المطاف نزيلا في بؤرة الظلم! إنني أصاب بالغثيان والتقزز.. إلى أية حقبة زمنية بعثتني يا خضير!؟ في الحقبة الأولى كنا على الأقل أحرارا في أرضنا، أسيادا وعبيدا! وهذه فاله، يا للخزي! تضاجع علجا غازيا مشركا! أنتهت رغبتي في الوقوف على أطلال أَوْدافُوسْتْ! لابد أن أهرب في أول فرصة من هذا الشيطان الذي يطارد الأشباح! ألم يقل لي الخضير: "إذا لم ترغب في البقاء في المحطة المقبلة، افعل كما فعلت هنا.. اعتزل البشر، انفرد في الصحراء، وانتظر أمر ربك"... لكني إن فعلت سأفقد إمكانية السفر في اللازمان... وماذا لو فقدتها؟ هل من الممكن أن تكون أي محطة قادمة أسوأ من هذه التي أنا فيها الآن؟ قد يكون من الأفضل أن أبقى هنا وأساعد المقاومة... لكن انْصَارَ قد يمسكون بي، ويفعلون معي ما فعلوه بأهل تِجَفْجَه؛ يعذبونني، ويشنقونني في جذع نخلة، ويوقدون النار تحتي.. سأفقد حينئذ آخر فرصة عندي أن أسافر بعيدا إلى الأمام، وأعثر على بشر أفضل، إذا كان موجودا... في جميع الأحوال، لا يبدو أن انْصَارَ سيمنعهم شيء

مما يريدون.. وأنا لست واثقا أصلا من قدرة البشر على العمل الجماعي .. ألم يخنا أصحابنا من العبيد في أَوْداڨُوسْتْ ويفشلوا ثورتنا؟ لا، لا، يكفيني ما رأيت، ليست لي رغبة في انتظار الآتي! لأذهب بعيدا إلى الأمام! هناك قد تكون البشرية أفضل...» لما استيقظت كنت ما زلت أفكر في حلمي: كنت على رأس جبل أصلي ليل نهار.. كنت جوعانا، عطشانا، تطمع في الذئاب والنسور.. وكنت أرى أسفل الجبل مدينة جميلة الدور، تحيط بعماراتها الحدائق الكارعة في المياه.. وكلما نزلت تجاه هذه المدينة، يستقبلني الرجل الدميم ذو الهامة العظيمة، يسد الطريق أمامي ويكرر علي بلا انقطاع نفس الأمر: "اعتزل البشرية، انفرد في الصحراء، وانتظر أمر ربك!" أرجع إلى مكاني، وانهمك في صلاتي تحت أعين النسور...

في تِجَڨْجَه، صار ڨُوسْتْبَاسْتَر يراقبني مراقبة دقيقة.. أسكنني معه في خيمته كأني على وشك الهرب.. وكان عندما يتخلف يترك حارسا من القناصة يراقبني.. طلب من افْرِيرْجَانْ أن يؤسس له صلة مع علماء المدينة وشيوخها وكل من له شهرة في حفظ التقاليد المروية.. خلال مقامنا في المدينة، عرض عليه النقيب الكثير من الناس، أغلبهم شيوخ.. كان يسألهم عن كل ما له علاقة بحياة وموت أَوْداڨُوسْتْ.. أعطوه روايات كثيرة ومتناقضة.. بعضهم قال إن المدينة تحولت إلى نهب لثوار العبيد الذين قتلوا جميع الأسياد، فلم يبق منهم إلا طفلان توأمان كانت أمهما أمة دخل بها سيدها.. وآخرون قالوا إنها أصبحت مهجورة بعد أن تغيرت طرق القوافل على إثر ندرة المياه؛ والبعض قال إن المدينة دمرها المرابطون... اختلفوا فيما إذا كان اسم المدينة الحقيقي هو أَوْداڨُوسْتْ أو أَوْدَاغُوسْتْ أو أَوْدَاڨَاسْتْ أو تڨُداءُسْتْ أو تَاغَاءُسْتْ أو تَغاءُوسْتْ.. لكنهم اتفقوا جميعا على أن أطلالها مطمورة في نُداشْ، الذي يوجد في آوْكَارْ، شمال شرقي تَامْشَكَّطْ..

صرت كلما استيقظت، أجد نفسي أفكر في الحلم الذي صار يراودني دائما.. أني أموت عطشا على قمة جبل ويمنعني الدميم ذو الهامة العظيمة أن أنزل إلى المدينة ويكرر بلا مهل: "اعتزل البشرية، انفرد في الصحراء وانتظر أمر ربك!" في النهاية، وبلا إرادة مني، وجدتني رهين طِلبته لكثرة ما سمعتها، أصبحت أتحرك داخل منطقها دون أن أقصد.. صحيح أنه ليس لدي ما يربطني بهذا الزمن وأهله، إذ لست إلا رهينة بين يدي العلج قُوسْتْبَاسْتَر، الذي يزداد تمسكا بي دون أن أعرف السبب.. كنت ما أزال أجهل من أنا، ومن أين، وما الذي جعله يتمسك بي.. صار يسميني ڤارا ويزعم أني قادم من اللازمان، وأني أعطيته معلومات لا تقدر بثمن عن المدينة الشبحية التي يفتش عنها.. من المحير حقيقة نسجه لكل هذه الأكاذيب! فاله التي أصبحت الآن تسميني ڤارا مَعْطَلَّ نسيت الثعلب.. ويبدو أن اهتمامها بي يزداد أيضا..

انتهى قُوسْتْبَاسْتَر من جمع المرويات عن أَوْداقُوسْتْ وبات يفكر في استئناف السفر قريبا إلى نُدَاشْ.. لكن افْرِيرْجَانْ كان يمنعه من السفر.. أخبره يوما أن هجوما وقع جنوب المدينة:

ـ هجم ثمانون من المقاومين على إحدى مفارزنا الصغيرة، بقيادة عريف.. وقيل لي إن أمير آدْرَارْ نفسه ينوي الزحف على تِجَقْجَه.. إنهم، لما علموا بمقتل كُوبُولاَنِي، بدأوا هجماتهم.. لابد من انتظار وصول النجدة.. قافلة الإمداد العسكري والمؤن غادرت سَانْ الوِيسْ منذ أيام..

كنت قد قررت أن أهرب في أول فرصة إلى الصحراء، لألتحق بهذا الرجل الذي أصبحت أحلامي مسكونة به.. لكن الإجراءات الأمنية كانت محكمة.. كنت حبيسا في الحصن الذي اكتمل بناؤه، عاجزا عن تطبيق

مخططاتي.. طلبت من قُوسْتُبَاسْتَر أن يدعني وشأني، أن يتركني لحال سبيلي، لكن كانت النتيجة تشديد الرقابة علي...

وصلت قافلة النجدة والمدد، واستطاعت بعثتنا أن تنطلق، يحرسها رقيب في معية سبعة عشر بَرْتِزَانًا. الرياح الشرقية مضى على انطلاقها ثلاثة أيام.. الحرائق كثيرة في السهول الواسعة التي يبس عشبها والطيور الكواسر تحوم فوق النيران، تطارد الحشرات والزواحف الفارة من الحريق...كان الحر تحت ظلال السمر، بين الحشرات المؤذية، أثقل منه في المجابات الكبرى.. الدليل أكد هذا الصباح أننا سنصل تِشِيْت رواحا..

كانت البعثة تمر في محاذاة ما يشبه السد الطويل من الحجارة ذات اللون الأسود البنفسجي، الذي هو بمثابة الشاطئ لبحار الرمال الآتية من الشمال.. انطلق الرصاص فجأة، على الجانب الأيمن للبعثة مما يلي اظْهَرْ. تقافزنا عن الجمال، انبطحنا على الأرض.. كان الرقيب يصدر أوامره سريعة. كنت منبطحا خلف صخرة كبيرة، ومن حولي أموات وجرحى.. نصبوا المدافع والأسلحة الرشاشة وراحوا يكنسون منحدر اظْهَرْ.. كنت أميز المقاومين بأفخاذهم العارية، ولممهم الطويلة المجعدة، وأعينهم اللامعة؛ أراهم يقفزون من صخرة لأخرى، ليختبوا خلفها ويسددون طلقاتهم.. حركاتهم السريعة كانت تشل فعالية الآليات الكبيرة البطيئة الحركة.. كانت سرعتهم ثعلبية.. عتادهم كان خفيفا: بنادق يدوية ومخالي يحملون فيها الرصاص...

هبط الظلام .. لم يكن ثمة من ضوء سوى النجوم، أو شرر النار الذي تقذفه المدافع من أفوهها.. تباعدت الطلقات.. انتهزت فرصة الظلام، تسللت ناحية اظْهَر.. صعدت إلى أعلى. لم أجد أثرا للمقاومين.. لم أعد

أسمع صوتا للطلقات النارية.. رجع الليل الصحراوي إلى سكوته الأول، قبل الإنسان! استقرت بي الحال على قمة اظْهَر.. بدأت خلوة كنت أريد لها أن تكون أبدية..

الجزء الثالث

برج التبانة

انْوَفَّلْ

كتائب النسور بمناقيرها الثقيلة الفولاذية وأعناقها الطويلة كخراطيم الفيلة، كانت تحوم باحثة بأعينها النفاذة عن جثة! لكنني كنت أنتصب واقفا بانتظام، وجهي إلى الشرق، أرفع جناحي وأبسط يدي في محاذاة أذني، وأصيح صيحة مدوية يرددها الجبل.. أظل واقفا، مطمئنا، أتمتم بتلاوتي.. وأركع مادا رأسي إلى الأمام، قابضا على ركبتي بيدي، مستقيم الظهر، راسما زاوية قائمة من ظهري ورجلي.. أقف.. ثم أهوي برأسي، واضعا جبهتي وأرنبة أنفي على الأرض، واقفا من مؤخرتي على ركبتي.. أستوي جالسا ثم أعود برأسي إلى الأرض ثانية.. وأجلس مطمئنا ثم أستوى واقفا.. وأطلق نفس الصيحة المدوية التي كانت تضعف مع الأيام.. كنت أكرر نفس الحركات، مرتين، ثلاثا، أربعا، حسب الأوقات.. في الليل أسمع عواء الذئاب.. لكن تكبيرات الصلاة كانت دائما تؤخر وقت الفريسة..

أولى ليالي الخلوة، صليت لوجه الله الخالق الآخر الذي ليس له بعد والأول الذي ليس له قبل.. تضرعت إليه وواثقته ميثاقا غليظا: "أقسم

بالله الخالق أن لا أعود إلى البشر الفاسدين، وأن أعيش حياتي عدلا، بعيدا عن الجائرين، حتى مماتي!".. الانقلاب الكلي في داخلي، لم يغير شيئا في ناموس الكون.. كل شيء كما كان: الشمس الدائبة من الشروق إلى الغروب، والرياح السموم المحملة بالحصى والغبار هي هي، تدوي في جنبات الجبل.. احتفظ وجه الطبيعة بملامحه القاسية التي نحتتها الرياح والشمس في رمال وصخور الصحراء.. لكن إرادتي لم يزعزعها لا الحر الشديد في النهار، ولا الزمهرير القارس بالليل، ولا الجوع، ولا العطش.. كنت كلما أحسست وسواسا مثبطا، سمعت صوت أبي الهامة: "اعتزل البشر، انفرد في الصحراء وانتظر أمر الله!"..

بعد أيام من الصوم الكامل، تشنجت عضلاتي.. ضعفت حتى عن أداء الصلاة حتى بعيني أو إصبعي أو في قلبي.. الخشوع حل محله وهن شديد وقلق فظيع وكره مقيت للجنس البشري.. الألم الذي لم يعرف مثله يزحف رويدا رويدا على الجسد، يبتلعه كما تبتلع الرمال غرقاها.. الشفاه، الفم والمريء تيبست وتكسرت.. المعدة والأمعاء تتلوى، كأن قوة هائلة تعتصرها لاستخراج ما تبقى فيها من ندى.. نار شرسة تحرق الأحشاء، ويمتد الحريق ليلتهم الوجه واليدين والصدر...

عندما أحس بالنسور تهبط على جسدي بمخالبها المسننة، وأحس بمناقيرها الفولاذية تنهش بدني، ينتفض جسمي انتفاضة شديدة يائسة.. تترك النسور قبضاتها، وتتحلق حولي غير بعيد، ترف بأجنحتها، وتختال، تنتظر وعدا مؤكدا حان وقته.. آلام مبرحة تسري في عظامي، في لحمي، وفي عروقي، تظل تتزايد في نوبات، تمر بمرحلة جزر قليلا ثم يرجع المد أقوى مما كان.. أحس كأن قلنسوة من حديد عضت رأسي.. وراحت تضيق عليه، تضغط بصورة متزايدة.. تجاوزت عظام الرأس،

لتقبض على الدماغ .انفجرت في كياني حمى نافض، أعقبها إحساس بالانهيار الكلي، فطلائع الغيبوبة... هدأت الآلام، ارتخت الأعصاب وتمددت الرجلان؛ هدأت العروق اللاهثة، ما عادت عطشى ولا جائعة.. أسمع طنينا متواصلا في أذني .. بموجات صوتية طويلة.. أحس كأني وسط جمهور كبير، أكاد أميز في الضوضاء جوقة من الأصوات الصديقة.. يبدو أن الصحراء امتلأت بالسكان، لمشاهدة موتي... أنا في عالم جديد تهاجمني خلاله ذكريات تافهة، غريبة، كالنسور التي أطردها وتعود...

نزلت من السماء سحابة مثقلة بالماء على جبهتي ووجهي، صارت تبلل شفتي وتنزل إلى الصدر والرجلين، ثم تعود القهقرى إلى الجبهة... إحساسي بهذا الحضور الغريب كان يختلف كليا عن إحساساتي الأخرى.. كان يتجسد رويدا رويدا ويرقى إلى مستوى استمرارية وكثافة الوجود... مع ماء السحابة أصبح الجسم يستعيد حياته، في الوقت الذي مازالت الصور والأصوات ضبابية. كان شيء ما أخضر يتجسد في هذا الوسط المائع القلق.. الآن وصل الماء إلى كل الجسد. بُعث الدماغ، النفس البشرية المغرورة نبتت من الماء من جديد.. كنت مستلقيا على ظهري، في ظل شيء لم أتبين هويته، ليس له ملامح مميزة، تحيط به هاله خضراء مؤنسة، مختلفة عن الهواء من حولها، كأنها غريبة على عناصر الأرض.. ومن حولها كان الضوء يغمر السماء... كانت الشمس باسطة عباءتها الساكنة على الصحراء.. اختفت النسور! ما زلت في نفس المكان، على رأس الجبل.. ركزت نظراتي من جديد على الكائن الضبابي خلف هالته الخضراء.

ـ الخضير!

ـ إذن أخترت للمرة الثانية أن تبدل القرن الذي تعيش فيه؟

ـ الخضير! ما هنا فظيع! إنها فترة مرعبة، ملأى بالظلم ومن البشر الشريرين. النصْرانِ كثر أولاده، إنهم الآن بالمئات، يقودون الجيوش من القناصة والبَرْتِزَانْ، آتون من كل الجهات غزاة، يريدون استعباد البلد بأكمله، حتى الأسياد صاروا عبيدا لهم! خضعوا لأبشع أشكال العبودية، صاروا عبيد انْصَارَ. لن أتحمل العيش في هذه الأمة، لن أطيقها.. أريد العيش في أمة أخرى أو الموت!

ـ امض! امض بعيدا إلى الأمام! تتبع أوهامك، بدّل أمتك مرة أخيرة! لكنك لن تستطيع مغادرة المحطة المقبلة، ستموت فيها!

وتوارى بسرعة خلف هالته الخضراء..

1
الماشي

فتحت عيني.. امتلأتا بضوء الشمس الشديد.. أغمضتهما بسرعة.. جلست.. تلفت حولي.. كنت على قمة جبل أجرد، أمغر، تولول فيه الرياح.. لم أكن أعرف من أنا ولا ما الذي جاء بي إلى هنا.. لم أكن جوعان ولا عطشان.. لم أكن أعرف ماذا علي أن أفعل. أخذت أهبط منحدر هذا المرتفع الحجري الداكن، البنفسجي، الذي يحد الرمال المتجهة إلى الشمال، وإلى الجنوب، إلى مدى البصر.. بسرعة وجدتني في منطقة الكثبان المتحركة.. تهت فيها بلا هدف أصعد وأهبط بين الربى والوهاد اللينة الرمال، تتعاطاني جبال وأغوار هذا البحر الهائج الرجراج، دون أن أصادف أي أثر للحياة.

أخيرا عثرت على أول دليل على وجود حياة: نبتة مرخ هزيلة تتدافعها الرياح العاصفة، يتشبث بأحد أغصانها عنتر مقرف. تُرى، لماذا خرج هذا الذباب عن المألوف، بامتلاكه هذه العين الثالثة المرعبة؟ قرون

استشعاره، الصهباء أصلا، اسودت واشتد لمعانها.. فقد كل مخالبه.. صدره الأسود عادة تحول لونه إلى الأخضر الحديدي. كان العنتر يطبق بأرجله على غصن ما يزال خضلا. حاول أن يطير بتحريك أجنحته الشفافة المتقزحة، ذات العروق المصفرة، لكن رأسه الناتئ عاق المحاولة وحولها إلى عبث يدعو إلى السخرية. ازدادت الصفيحات الأمامية الداخلة لعيونه الثلاث تمددا بسبب مجهود محاولة الطيران. كانت الرياح تعبث بالنبتة الجاثمة على حزمة هشة من الجذور، التي ما تزال متشبثة بتلك التربة المتحركة. كل رياح عابرة تكاد تستأصل النبتة وترمي بالعنتر في بحر الرمال البيضاء المذهبة، فتكفيه تجشم مشقة محاولة الطيران الذاتي. إلا أن حزمة الجذور ما تزال متمنعة فوق مجثمها، القالب الرملي الملتف تحت جذوع متيبسة لم تعد سوى خيوط ليفية هزيلة. تسارع تمايل النبتة، مؤديا إلى تقوس بعض الجذور وشد بعضها الآخر... عصفت الرياح بقوة فتكسرت الأقواس السفلية وسقطت النبتة بعنف على الأرض. صُدم العنتر، لكنه ظل ممتطيا غصنه. لم يعد يربط النبتة بالأرض سوى عروق علوية وجذر طويل، يخيل إليك أنه حبل مرسى سفينة.. العنتر، الذي أضحى عاجزا عن الطيران، أعاد لف أجنحته وألصق بطنه الأخضر اللامع فوق هذا المرسى.. ظلت الرياح تتلاعب بنبتة الوزال، راسمة أثرها على الرمل، حتى اللحظة التي انقطع المرسى بعنف وحملتها هي والعنتر زوبعة هوجاء..

رفعت بصري أتابع النبتة التي اقتلعتها الرياح، وراحت تدحرجها بين جنبات الكثبان المتحركة.. رأيت سدا حديديا نابتا في أسفل كثيب كبير أحمر ساكن، يمتد بسعة الأفق، يقفله كسد ذي القرنين. بدأ من أسفل قاعدة الكثيب وارتفع معه صعودا حتى تجاوزه.. كان السد مكسوا بأطباق حديدية، تبدو تهديدات مصوبة ضد كل من يجرؤ على الاقتراب: جمجمة عظمية لإنسان باللون الأسود في إطار أبيض، تحتها عظمان متقاطعان؛

ألسنة نارية حمراء فوق دائرة سوداء على خلفية صفراء؛ ألسنة لهبية سوداء، تحتها سبعة خطوط حمر عراض، على خلفية بيضاء؛ ثلاثة أهلة وسط دائرة تحتها كتابة سوداء على خلفية بيضاء؛ نفل أسود معه كتابة خلفها خط عريض أحمر عمودي، على خلفية بيضاء؛ نفل أسود على خلفية صفراء معه كلمة يتبعها خطان أحمران عريضان على خلفية بيضاء، تتبعهما كتابة؛ نفل أسود على خلفية صفراء معه كتابة تحتها ثلاثة خطوط حمر عراض عمودية تتبعها كتابة على خلفية بيضاء... أطباق كثيرة من هذا النوع كانت ترصع السد الحديدي على مدى البصر.. على ظهر الكثيب الذي يسيجه السد، كان ثمة كائن غريب يروح ويجيء في دورية لا تتوقف، تلمع من تحت خوذته نظارات عريضة تؤلف جزءا من قناع واق ويحمل بندقية بين يديه المقفزتين.. كانت تظهر معه كائنات مشابهة له، تفصل بينها مسافات متساوية على اليمين والشمال، على مدى البصر.. كانت هياكل عظمية بشرية تُرى متناثرة على منحدر الكثيب من وراء السياج... أحسست بشيء لا أدري ما هو اصطدم بجبهتي، أحسست فورا بتأثيره السريع على دماغي وسقطت على وجهي في الرمل...

عندما استيقظت، وجدتني وحيدا في غرفة مقفلة، موثقا بعناية إلى مقعد.. يبدو أنني على مرتفع: كنت أرى سلسلة من الربى الرملية في منحدر، ومن ورائها يلوح سهل منبسط. اتضح لي بعد طول النظر أن ثمة أبنية في المنحدر كأنما نحتت في مكانها نحتا، لها نفس لون الأرض. في ذلك السهل، تلوح خطوط سوداء عريضة متقاطعة، تدب عليها كائنات، كما يتتابع النمل في أسرابه، تظهر على جنباتها كتابات بأنوار بيضاء، حمراء، صفراء... دخل غرفتي رجلان بزي غريب.. كانا يهذران بنبرة تهديد ووعيد، في رطانة لم أفهمها.. ضرباني بعنف وقسوة، إلى أن سقط المقعد الذي سمروني عليه.. أرغماني على ابتلاع جبتين

كبيرتين لهما طعم الملح، حرنتا في بلعومي، قبل أن يتسع لهما المريء ويهبطا في معدتي. غادراني وأنا مغشي علي، صريعا...

كان الظلام قد هبط عندما أفقت من غيبوبتي.. رأيت قوافل النمل السائرة، وقد تحولت عيونها إلى مصابيح وقّادة، لها أضواء طويلة كالمذنبات.. فكرت أن ثعلب الرمال لابد أنه يجوس الآن خلف السياج، يحاول اجتيازه ويفكر في اختطاف شيء.. كنت أتساءل إن كان سيجد ما يسرقه هنا.. تصورته ـ هو الذي اعتاد أن يلعب ويتلهى بالسرقة والاختطاف ـ وهو يرى أسراب هذا النمل العملاق ذي العيون النارية، سوف لن تكون لديه بحال القدرة على التفكير في السرقة أو الاختطاف.. سوف يفكر فقط في النجاة بحياته.. رأيته مرة فيما يرى النائم، وقد تمكن من اجتياز السياج، إلا أنه خرج خائبا، ليس في حوزته أي صيد.. قال لي إنه أضاع هويته الثعلبية وصار يتخيل أنه يربوع في مسلاخ غراب، وأن شعورا ينتابه بأن ذَنَبه يركض أمامه... كنت أنا هابطا من قمة جبلي، أفتش عن بشرية أفضل، عن أمة أعدل.. وكنت عارفا أنها فرصتي الأخيرة وأن السعي والتوق إلى الكمال وصل إلى نهايته، طبقا لميثاقي مع الخَضِيرْ...

أخذوني مع الفجر.. البنايات ذات اللون الأمغر، كانت رابضة على كتف المنحدر بين الحجارة الضخام؛ ما زالت في حماية الأضواء الصفراء الكاشفة.. في ساحة وسط بين البنايات، نُصبت صورة ضخمة، مرفوعة على قائمتين، لوجه أسود تنطق ملامحه بالقسوة.. عيناه غائرتان تحت حاجبين ناتئين، تشعان ضوءا كضوء أسنان اليورانيوم الاصطناعية.. الأنف الأفطس، المفلطح، المفركح، الأبتر، الواسع المنخرين، كان يمنع الشفاه الغليظة المحمرة أن تتماس، مجمدة الوجه في

ابتسامة عفريتية أبدية.. تحت الصورة كتبت أسطر لم أتمكن من التمعن فيها.. وضعوني في غرفة جديدة مرصعة بمرايا داكنة سميكة تتكلم وتعرض الصور، تضيء حينا وتعتم أحيانا.. مكثت فيها لا أدري كم من الزمن.. أياما أسابيع، أشهرا؟ كنت قد أضعت الزمن، ليس عندي ساعة ولا وجبات منتظمة ولا زيارات.. ليس عندي لا شمس ولا قمر، لا نهار ولا ليل..

في الحلم رأيت مرة تلك الصورة العفريتية، عرفت أن صاحبها حفيدي!! كنت دائما أعرف أحفادي عندما ألقاهم، أعرفهم من نظراتهم.. في الأمة الماضية لقيتهم كبارا وصغارا، في وضعيات مختلفة: مدنيين وعسكريين، أغنياء وفقراء، أسيادا وعبيدا، خيرين وشريرين، وسيمين وقبيحين، بيضا وسودا.. لكنهم جميعا كانت في عيونهم تلك النظرة التي لا تكذب، وتسمح لي بأن أميزهم من الآخرين.. كنت عندما أتعرف على أحدهم أعقد العزم على أن أتصل به عندما أستيقظ، واحذره! لكني عندما أستيقظ أكون قد نسيت كل شيء وانكسف وعيي باللازمان وحلت القطيعة بيني وبين أحلامي، بيني وبين ماضيّ.. حتى الوعي بهذه القطيعة بين نومي ويقظتي، ما هو إلا حلم، شبح يزورني في المنام..

عندما أخرجوني من المحبس الثاني، كنت أعرف الكثير عن تلك اللغة الملعونة، التي كدت أجن بسببها.. مرت الشاحنة التي تحملني أمام صورة الميدان؛ تمكنت هذه المرة من قراءة السطور تحتها: "فخامة تَنْفَلَّ وَلْ مَعْطَلِّ، رئيس جمهورية المنكب البرزخي الديمقراطية".. وتحت ذلك بحروف حمراء "عملات صعبة بأي ثمن!". حبسوني هذه المرة مع سجين آخر.. كانوا يشرحون لنا، ببرامج فيديو، طبيعة المعسكر الذي نحن فيه وأنظمة تسييره.. سألت زميلي لماذا يشحنوننا بهذا السيل من الصور

والكلام الفارغ؟ أجابني بأننا سندمج في فرق العمل، وننهي أعمارنا في المخازن! كان الجلد بسياط الفيديو سرمديا.. نفس البرامج تنتهي وتبدأ، ونفس الشريط الصوتي ينتهي ويبدأ من جديد.. "... إيمْدَلْ، أحد مراكز تخزين النفايات السامة والمواد الخطيرة في جمهورية المنكب البرزخي الديمقراطية.. هذه المراكز كلها مقامة في المجابات الكبرى.. هذه الأرض الشاسعة عالم من الرمال يتشكل في مناظر طبيعية مختلفة: روابي رملية متشابكة متداخلة، وعثاء؛ وهاد لينة بين الهضاب؛ سهول ووديان؛ قيعان واسعة، لابسة ملاحف ناعمة من دقاق الحصى، تلامس أطرافها السماء على مدى البصر في الأفق، عند الأوقات القصوى.. هذه المنطقة من أكثر مناطق العالم جفافا.. جمالها سحري، ولكن ليس فيها مجال للحياة.. تسجل فيها درجات حرارة قياسية والرياح المحملة بالرمال دائمة على مدار السنة، وأشهر أنواعها إرِيفِ التي تهب من الشمال الشرقي.. هذه المنطقة لا يصمد فيها إلا نباتات قليلة وحيوانات أقل استطاعت أن تتأقلم مع هذا المحيط القاسي منذ آلاف السنين.. حيوان المها هو الأكثر تأقلما.. هنا استطاع انْمَادِ أن يؤسسوا حضارة قائمة على صيد المها والغزلان.. لقد استطعنا أن نستفيد من هذه المساحة الشاسعة التي لم تكن مستغلة من قبل، وذلك بفضل حكمة رئيسنا المحبب فخامة تَنْقَلَّ وَلْ مَعْطَلِّ الذي بنى فيها مراكز لتخزين النفايات السامة والمواد الخطيرة، أصبحت تشكل بالنسبة لبلدنا مصدر دخل مهم من العملات الصعبة..

»" إن بناء وتشغيل هذه المراكز يحترم بصرامة قواعد الأمن العالمية. فالمخازن صلدة ونوافذها من قضبان الحديد.. الجدران الخارجية مغلفة بالفولاذ وجدران القواطع الداخلية مصممة بحيث تمنع انتشار الحريق ويزيد ارتفاعها عن السقف بمتر، وهي معززة بدعامات ومستقلة عن المنشأة المرتبطة بها، من أجل تجنب الانهيار في حالة حريق.. والتمديدات وأسلاك الكهرباء التي تجتازها موضوعة في أصداف رملية

للتخفيف من خطر الاحتراق. الأبواب القاطعة للنار تنغلق أوتوماتيكيا في حالة الحريق، بفضل فواصل قابلة للذوبان، ينشطها اللهب؛ الأسلاك المتصلة بهذه الفواصل تمر عبر حلقة الوزن المعاكس والسكة المائلة تؤمن القفل الأوتوماتيكي للأبواب التي تضم مخارج احتياطية ذات مقاومة معادلة للحريق. العلامات التوجيهية، الحمراء على خلفية بيضاء، والبيضاء، والصفراء والحمراء على خلفية زرقاء، والبيضاء على خلفية زرقاء، والسوداء على خلفية بيضاء، تؤكد منع الدخين، وتحدد أمكنة تجهيزات الاحتياط وكذلك أمكنة الهواتف والمخارج الاحتياطية. قواعد السلامة محررة كلها باللغة العالمية. إن مخارج الاحتياط معلمة بوضوح ومهيأة طبقا لقواعد السلامة الأساسية لتؤمن الخروج السهل في حالة الطوارئ، وهي مصممة ليمكن فتحها بسهولة في الظلام أو في الدخان الكثيف ومجهزة بقضبان للفتح وتمكن من الخروج من المخزن في ثلاثة اتجاهات؛ مداخلها منورة بخطوط وإشارات سوداء على خلفية صفراء ومحمية بأعمدة ملونة بنفس الألوان لتمنع إعاقتها.. البلاطات لا تسمح بنفاذ السوائل، وهي ملساء دون أن تكون مزحلقة وليست بها تشققات، مما يسهل تنظيفها؛ وهي محاطة بعتبات مرتفعة للإحاطة بأي تسرب للمياه الملوثة، عند مكافحة الحرائق. المستويات المائلة، والتي لا يتعدى ميلانها واحدا على خمسين، مبنية دون المداخل الخارجية وحافة المستوى المائل توجد خارج المخزن؛ هناك جدران صغيرة إضافية عند كل جانب من جوانب المستوى المائل لضمان حصر تام للسوائل. وفي السقف توجد ألواح للتهوية تمثل فتحاتها ثلاثة بالمائة من مساحة الأرضية تفتح أوتوماتيكيا في حالة الحريق من أجل صرف الدخان والحرارة، تمكن من تمييز بؤرة الحريق وتأخير تقدمه الجانبي. إن النفايات والمواد الخطيرة المخزنة في الآبار، في الهواء الطلق، مختارة بعناية بسبب تعرضها لدرجات حرارة عالية قد تسبب انعكاسات حرارية.. ولتجنب تلوث المياه الجوفية، تكون أرضية مساحة التخزين مغطاة بطبقة عديمة النفاذية مقاومة للحرارة.. الحاويات مثبتة ومخزنة عموديا على منصات رافعة..

»"عندما تصل المواد إلى المركز، تكون معرفة عن طريق بوليصة الشحن.. يسلم المورد كشوف معطيات الأمان، ويتم التأكد من حالة المواد اعتمادا على المعلومات المستقبلة.. يقدم الناقل وثيقة النقل لكل بضاعة، حيث يكون مكتوبا فيها اسم مؤسسة النقل، عنوانها، رقم هاتفها، اسم المادة المنقولة، الأخطار الرئيسية والاحتياطات اللازم اتخاذها، والإجراءات اللازمة في حالة حادث تسرب.. يتم الإيداع وفقا لمخطط التخزين ويحدد وفقا لطبيعة المواد المخزنة، حيث يترك دائما فراغ بين الجدران الخارجية والبضائع القريبة منها، وبين الرزم من أجل تأمين التهوية وكذلك لترك مداخل حرة للتفتيش ولرجال الإطفاء.. وبوسع عربات الرفع أو أي آليات للشحن أو السيارات الاحتياطية التنقل بحرية.. الأجنحة والزوايا عريضة للتخفيف من خطر إتلاف البضائع المخزنة.. الأجنحة والممرات والطرق المعدة للعربات الرافعة محددة بعلامات أرضية ومحرمة على المشاة، من أجل تجنب أي انسداد أو حادث جسماني.. يتوقف ارتفاع الرزم دائما عند ثلاثة أمتار.. الرسم التخطيطي على مداخل جميع المخازن، يبرز الأخطار التي يشتمل عليها كل جناح، ويبين أقسام الجناح، ومكان وكمية وأصناف المواد المخزنة، وأنواع الأخطار التي تنطوي عليها.. ومكان أدوات النجدة، ومكافحة الحريق، والطرق الموصلة إلى المنافذ.. لاحظوا التعليمات المكتوب بخط بارز تحت الرسم التخطيطي، والتي تمنع منعا باتا على العمال الأكل والشرب والتدخين في مناطق العمل.. الآن ترون منطقة اظْهَرْ الحجرية التي تمتد عدة كيلومترات؛ هذه هي منطقة تخزين المواد النووية المشعة.. هنا حفرت آبار عميقة لدفن الواد النووية المزججة.. تلاحظون أن الجبل تفلق في بعض الأماكن تحت تأثير المواد المشعة المدفونة فيه؛ لكن التشققات يجري طمها يوميا.. عندما يغادر العمال منطقة التخزين، لابد أن يمروا بغرف التطهير، قبل أن يأخذوا السكة الهوائية إلى مساكنهم؛ في هذه

الغرف يتركون لوازم الوقاية الشخصية وثياب العمل، ليأخذوها بعد تطهيرها عند استئناف العمل من جديد..." »

ـ نعم؟

ـ ما اسمك؟ سألني المسجون الآخر.

العمال الذين كانوا يخرجون من غرف التطهير لأخذ السكة الهوائية كانوا يختلفون تماما عن الكائنات الغريبة التي دخلتها! الأقنعة الواقية والقفازات والأحذية العالية سقطت.. وبزات العمل الثقيلة البيضاء، حلت محلها دراريع خضر فضفاضة، مزينة بالكثير من التطريز.. الوجوه العارية تعبر عن جميع آلام البشر.. لونها، الذي بيضته الأقنعة، احتفظ ببقية من نحاسيته.. الكثير منها كان شاحبا ومتغضنا، كالأوجه التي تصادفها في أجنحة السرطان في المستشفيات.. النظرات تعكس الاستسلام للألم والموت...

»"... أي إخلال بقواعد وتعليمات الأمان سيعاقب عليه بصرامة!" »..

كرر سؤاله ثانية.. أجبته بأني لا أعرف..

ـ لا أعرف اسمي... إذا كان لي اسم، فإني نسيته..

ـ هذا غير ممكن! أنت إنسان غريب! ومن أين أتيت؟

ـ لا أعرف...

ـ أنت تهزأ بي؟

ـ لا، أبدا! أنا هذا الذي أكلمك، كامل الجسم، أكبر منك سنا، لا أعرف من أنا ولا من أين! كل ما أعرفه عن نفسي، هو أنني فتحت عيني يوما، والظاهر عندي أنها كانت المرة الأولى، ونظرت من حولي، ولاحظت أني كنت على قمة جبل.. لا أعرف من أنا ولا من أين.. نزلت

إلى المنخفضات الرملية، وتهت فيها إلى أن عثرت على سياج المركز ...

كان برنامج الفيديو قد بدأ من جديد على إحدى الشاشات: "... النفايات السامة والمواد الخطيرة، في جمهورية المنكب البرزخى الديموقراطية..."..

ـ هل اقتنعت بما قلت لك؟

ـ لا! لن أقتنع بحكاية كهذه! لعلك مصاب بفقدان الذاكرة!

ـ وأنت من تكون؟.. لماذا حبسوك هنا؟

ـ أنا قادم من العاصمة، مدينة الرياح، حكموا علي بالأعمال الشاقة، أدانوني بتهمة مناصرة البيئيين وأني سربت معلومات إلى جبهة إنقاذ المجابات الكبرى.. الواقع أنهم أدانوني لأني من انْمَادِ...

ـ انْمَادِ؟

ـ نعم، انْمَادِ، صيادو المها القدماء.. هؤلاء الذين يتكلم عنهم الفيديو. كنا أسياد المجابات الكبرى، نعيش بحرية في هذه المساحات السحرية القاسية.. كنا رفضنا التقنية وعالمها لكي نحمي أرضنا.. لكن، عندما وصل تَنْقَلَّ إلى الحكم، وقع اتفاقية مع الأمم المتحدة صُنّفت بموجبها المجابات الكبرى منطقة دولية لتخزين النفايات السامة والمواد الخطيرة، ونفونا جميعا نحو المنطقة الساحلية.. حولوا أرضنا إلى مستودع للنفايات السامة! أنا نفسي مولود في مدينة الرياح، بعد حادثة النفي بزمن.. الكرة الأرضية كلها صارت الآن مصنفة كمستودع للنفايات على مستوى المجموعة الشمسية.. لم يعد يسكنها إلا منبوذو ومستضعفو النظام الشمسي من ضحايا التلوث والإشعاعات النووية.. أول فرصة أتيحت لهم، يبعثوننا للعمل الإجباري في المراكز الدولية لتخزين النفايات

السامة والمواد الخطيرة التي تعتبر السنتان الحد الأقصى لأعمار العاملين فيها...

ـ هذا فظيع! نحن على وشك الموت إذن!

ـ من وقت لآخر، تفجر جبهة إنقاذ المجابات الكبرى قنبلة في أحد المراكز أو تقتل سائق شاحنة معزولة؛ لكن ذلك عديم الجدوى: تَنْقَلَّ يدشن مركزا جديدا كل ثلاثة أشهر...

2
النَّوْحُ

في تلك الليلة نمت نوما قلقا، وعندما حان وقت الحلم استرجعت ذاكرتي ووعيي باللازمان.. رحت أبكي وأصرخ بكل قواي، مناديا ملك الزمن: «"الخضير! الخضير! في أية كارثة أوقعتني !؟ أخرجني من هنا، أنت تعرف تماما أني مسافر في اللازمان أبحث عن بشرية أفضل، وتعرف أن هذه الأمة هي شر الأمم.. لا تتخل عني هنا!" بعد كثير من الإلحاح والتشفع، استجاب وظهر لي، في نفس الملامح الغامضة، خلف هالته الخضراء. "فَارا هل نسيت ميثاقنا؟"، "لا، لم أنس شيئا!"؛ "إذن لابد أنك تذكر أني سمحت لك بالسفر في المستقبل لاستبدال أمتك..."، "نعم، لكن كنت أتصور أن المستقبل سيكون أفضل من ماضيه..."، "لهذا اخترت استكشاف المستقبل.. وأنا سمحت لك باستكشاف فترتين إن شئت.. قلت إنك راغب في مغادرة فترة أَوْدَافُوسْتْ، واستخدمت الفرصة مرة أولى، فوجدت نفسك تسعة قرون بعد الفترة التي هربت منها.. وبما أن الرجوع للماضي مستحيل كان بإمكانك إما أن تستقر في الفترة التي

جئتها، وإما أن تسافر في فرصة ثانية وأخيرة نحو المستقبل، مع الاحتمال أن تجد نفسك بين أمة شر من تلك التي فررت منها، ويكون مستحيلا عليك أن تغادرها.. أليس هذا هو الميثاق؟ رغم هذا غادرت فترة كُوبُولاَنِ ووجدت نفسك في فترة تَنْقَلَّ، وها أنت تلح علي أن أمنحك فرصة أخرى!! أذكرك الميثاق، وأؤكد لك أن السفر في اللازمان انتهى، وأنك باق هنا إلى أن تموت!".. "أنقذني! لابد من مغادرة هذه الأمة اللعينة! لم أر الشر من مسافة أقرب من هذه!"؛ "لم يبق لديك ملاذ! أي إنسان قبلك وجد فرصة لأن يعايش ثلاث أمم مختلفة ومتباعدة في الزمن؟ أنت لم تلق إلا ما تستحقه بسبب ظلمك وجهالتك! لا يمكنك الهروب دئما من القدر.. لم يبق عندك مفر.. أنت مرغم على أن تعيش في أمتك.. على كل حال، هذا الذي تشاهده هو الوجه الأخير للأرض.. لو واصلت السير في المستقبل، فإنك ستجد الأرض وقد أصبحت كومة رماد، والشمس وقد انطفأت!" وتوارى تدريجيا مع هالته الخضراء.. "لا ! انتظر! انتظر! الخضير! الخضير!..." »..

استيقظت.. كنت أرتعد رعدة شديدة وكان رأسي ثقيلا كأنه كرة من الرصاص، على وشك أن ينفجر من شدة الألم.. وكان انْمَادِ يمسكني من يدي..

ـ ماذا بك؟ من يكون هذا الذي كنت تناديه؟

كان لساني منعقدا، وحلقومي جافا ملتصقا..

ـ أعطني أشرب!

لما شربت أعاد علي السؤال:

ـ من ذا الذي كنت تناديه؟

ـ أنا! متى كنت أنادي أحدا؟

ـ الآن، عندما استيقظت كنت تصرخ "الخضير! الخضير!"

ـ هذا غريب... لا أذكر شيئا!

ـ أنت مخيف! من الحكمة الحذر منك!

من الغد، جاءنا المشرف على العمال مبكرا.. كان مسلحا، هددنا كثيرا وقال قبل أن يسير بنا:

ـ أنا ذاهب بكما إلى غرف التطهير.. أريد أن أجهزكما للعمل.. أصبحتما ضمن فرقة المناوبة النهارية.. ستنضمان لفرقة مراقبة الآبار. هيا أسرعا!!

كنا أول من وصل إلى غرف التطهير.. أشار المشرف إلى دواليب قال إنها لخزن ثيابنا وأمرنا أن نغتسل في حمام بارد، نتن.. أحسست بجسدي كأنما الماء يخزه وخزا شديدا.. ألبسنا ثياب العمل: بزتان بيضاوان ملساوان.. احتذينا نعالا تصل مداخلها إلى الركب ولبسنا الأقنعة الواقية والقفازات.. انتظرنا حضور بقية فرقتنا ونحن جالسين على مقاعد حديدية، منحنيين، مطأطئا الرأسين.. توافد العمال.. كانوا صامتين، يمشون كأنهم مجموعة من المنومين مغناطيسيا..كان باديا عليهم أنهم يعانون آلاما فظيعة، لكنهم ساكتون.. خلعوا أثوابهم وأودعوها في دواليب الحديد، وانتظموا طابورا أمام باب الحمام النتن.. فعلوا جميعا كما فعلنا.. ثم أعطوا لكل واحد منا حبتين وأمرونا بابتلاعها.. شعرت بغصة وأنا أبتلعهما..

كانت الشمس قد تربعت على قمة الجبل، عندما نزلنا من السكة الهوائية، عند منطقة الآبار.. كنا أربعة إذا حُسب معنا المشرف؛ تفقدنا

المنطقة، نلاحظ التصدعات الحاصلة فيها منذ البارحة! وجدنا عدة تشققات، بعضها يشبه الأخاديد العميقة..

ـ هذه هي الطريقة التي ستنتظم العمل: أنتما، وأشار إلي وإلى انْمَادِ، ستجمعان قطع الصخور الكبيرة من أعلى المرتفع، قلت الصخور الكبيرة وليس الصغيرة! تضعونها في الطحانة.. وأنت ـ مشيرا إلى الآخر ـ تدير الطحانة وتذيب الحجارة وتوجه المنصة لسكب الحجارة المذابة في التشققات.. أسرعوا! هيا! إنني أراقبكم أيها الكسالى!

في آخر النهار، عندما كانت ظلال البزات متسلقة الجبل، عالية، كأنها أشباح عملاقة، سمعنا صفارة نهاية عمل اليوم.. في غرف التطهير، عندما خلعت لباس العمل، تحسست جسدي، لم أصدق أنه ما زال متجسما، ما زال صلبا لم يتحول إلى سائل. كان الحي السكني مقاما على أكناف الجبل، يعلو ويهبط متتبعا تضاريسها.. يتكون من سقائف مصنوعة مسبقا، لا يمكن الوصول إليها إلا بالسكة الهوائية.. دلوني على مكاني في المنامة الجماعية.. كان متكأ يشبه متكآت المعسكرات، بجانبه دولاب من حديد من نوع ما رأيته في غرف التطهير.. ارتميت فوق السرير وبقيت لمدة فاقدا الوعي.. فزعت من صفارة إنذار انطلقت فجأة.. خيل إلي أول الأمر أنها في داخل رأسي.. ثم رأيت الناس يتوجهون إلى بوابة الخروج.. نهضت على إثرهم في ممر طويل، يؤدي إلى باب كان مفتوحا، يتألف من درفتين كبيرتين على الجانبين في موازاة الحائط، تحكمهما من أعلى وأسفل سكتان حديديتان.. كانت فوق الباب كتابة بحروف مضيئة تحدد وظيفة المكان وعلى اليمين أمام الباب، لوح أسود كتب عليه بالطبشور الأصفر: "وجبة الأحد 20 ديسمبر 2045، حساء البوتاسيوم، بيف استيك، فطريات مغلية، تمر آغْرَيْجِيتْ"، أخذت مكاني على مقعد حديدي بين الآخرين... كان الخدم يطوفون.. مر اثنان قرب طاولتنا، أحدهما يجر تابوتا ضخما فوقه مراجل فائرة يتصاعد منها البخار، وآخر يغرف

الحساء من المراجل الفائرة ويصبه في الأقداح.. بدأ أحد جلسائي يصيح كالمجنون، أخذ القدح الملآن بالحساء الساخن وصبه على وجه الرجل الذي يسحب المطبخ النقال.. تواثب عليه رجال الأمن، وأشبعوه لطما ولكما دون أن يهتم به أحد.. سحبوه إلى الخارج؛ كان صياحه ينتهي إلى آذاننا.. فتحوا الهُولُوفِزْيُونْ وكانت الجهارة على الأقصى.. بدأ الناس يشاهدونه ويأكلون، وهم ساهمون..

لما خرجنا من غرفة الطعام جاء رجال الأمن يبحثون عني وعن انْمَادِ.. اقتادونا إلى مكتب مدير المركز.. انتظرنا عند الباب نصف ساعة على مقاعد.. ليست لدينا فكرة عما استدعينا من أجله.. رجال الأمن خرجوا إلى الفناء يتحدثون، كأنهم نسونا تماما.. لكن كلبا بحجم الأسد كان منبطحا مسافة شبر من أقدامنا.. عيناه مصوبتان إلينا لا يلتفت أبدا.. يهر، ويكشر عن أنيابه لأي حركة تبدر من أحدنا.. دخل أحد رجال الأمن استجابة لرنين جرس على مدخل قاعة الانتظار.. أدخلنا على النَّصْرَانِ.. كان قصير القامة بدينا كالخنزير المسمن، يلبس سروالا قصيرا وقميصا من الكاكي قصير الكمين.. كان يولينا ظهره، واقفا بين مكتبه وصفوف من الحواسيب.. رأسه حليق حديثا.. رقبته تعلوها ثنيات من الشحم، ضاعت فيها الحدود الأصلية للرأس.. أذناه على وشك أن تبتلعهما كثبان الشحم كليا.. كان رجل الأمن قد أغلق باب المكتب منذ برهة.. النصْرانِ مازال يولينا ظهره كالأريكة، محدقا في شاشاته، يعبث بمفاتيحها.. أخيرا استدار في مواجهتنا، حدق فينا.. كان ينظر إلينا من فوق إطار نظارته.. عيناه الكستنائيتان مدفونتان، بلا حواجب وبلا حدقة.. وجهه لا ينطوي على أي معنى زائد على شاشات الحواسيب المحدقة فينا من ورائه.. جبهته ضيقة مغضنة، وشفتاه الرقيقتان منطبقتان تماما فوق ذقنه الأصلي الحليق الذي ابتلعه الذقن اللحمي الطارئ، فتحول إلى حبة طماطم.. كان وجهه منقطا ببقع حمراء وكانت عكن كرشه الضخم الأبيض، تتفلت من

بين أزرار قميصه الممتلئ.. ركبتاه انمحت ملامحهما تحت شلالات اللحم المتدفقة من الفخذين وقدماه العاريتان محشورتان في شبكة نعاله لبلاستيكية. خطا باتجاه المقعد، فانهار فيه.. وأشار بيده:

ـ اجلسا!

ناولنا أوراقا للتعبئة..

ـ إقرءا جيدا قبل أن توقعا.. هذه عقود العمل والإقامة.. أنتما مدانان، لكن دستورنا يضمن حقوقكما..

احتججت قائلا:

ـ مدانان، كيف؟ أنا بريء ولم يصدر بحقي أي حكم!

ـ أنت حالة خاصة! أنت مضبوط متلبسا بالجرم المشهود!

ـ "متلبسا بالجرم المشهود"! أي جرم؟ ماذا فعلت لتحبسوني هنا؟

ـ كنت تجوس حول السياج...

ـ أقسم أني كنت هناك صدفة!

ـ لا يهمني ما تقول، لا أريد أن ترهقني بأقوالك.. أنت بالنسبة لي مدان كالآخرين.. في كل الأحوال، لا يمكن أن تحاكم إلا بعد معرفة هويتك ودوافعك.. التحقيق بشأنك مازال مستمرا.. أرسلنا مواصفاتك كاملة إلى البوليس الدولي، لأننا فشلنا في معرفة هويتك.. ستبقى سجينا هنا إلى أن يسفر التحقيق عن نتيجة!

كان انْمَادِ يتابع حوارنا ساكتا، يائسا.. كان قد وقع عقده دون أن يكلف نفسه قراءته.

ـ أنا لن أوقع أي شيء! قلتها بثقة مفتعلة.. أنا لم يصدر في حقي حكم، ولن أوقع بالتالي أي شيء!

رن جرس الباب الذي انفتح، ودخل منه رجال الأمن..

ـ أرجعوا انْمَادِ إلى المنامة، وخذوا هذا إلى غرفة الإكراه!

أخذوني من جناحي وأنا أقاوم؛ اقتادوني إلى غرفة خاوية، جدرانها مزروعة بعيون الزجاج.. لحظات، ووجدت نفسي في ظلام دامس.. ثم صوبت علي من كل الاتجاهات أشعة ملونة.. أحسست دماغي ينعصر فأمسكت رأسي بين يدي.. انطفأت الأشعة وأضيئت الغرفة بشكل طبيعي، أخرجوني وأعادوني إلى النصْرانِ الذي مد يده بالعقد بلا مبالاة:

ـ وقع هنا! ووضع إصبعه على نهاية الصفحة الأخيرة من الشكلية.

وقعت في المكان الذي حدده..

ـ اذهبوا به الآن!

المنامة كانت خاوية وكان الضوء منطفئا..

ـ جميعهم ذهبوا.. سمعت صوتا يقول ذلك.. في مثل هذا الوقت يكونون في النادي..

التفت إلى مصدر الصوت.. رأيت نصف رجل.. قدماه منفرجتان.. نصفه الأعلى تطامن على نصفه الأسفل.. رأسه يلامس الأرضية وجناحاه المنضمتان إلى بعضهما خارجتان إلى الوراء من بين ركبتيه.. ثم نأى برأسه المتدلي حتى استقام قائما.. وجعل يهوي برأسه من الوراء إلى أسفل.. يهوي.. يهوي.. حتى لامست يداه الأرضية.. أصبح قوسا.. بطنه إلى السماء. سألته ماذا يصنع؟

ـ رياضتي اليومية.. ساعة قبل النوم.. أكمل بها ساعة الركض الصباحية.. هذه أفضل طريقة لصحة وتوازن الجسم!

ـ الصحة!؟ توازن الجسم !؟ هنا !؟

أخذ في شروح طويلة، لم تكن لي القدرة على متابعتها من شدة ألم رأسي.. استلقيت في مضجعي وأنا أسمعه مازال يهذر:

ـ ... فاهم؟ مادامت الحياة ... الخ.

3
اتْزَخْرِيْف

خلال كل تلك الفترة كنت دائما أترجى الخضير في نومى، بدون جدوى.. زارتني في إحدى النومات فالة أَوْدَافُوسْتْ، في هيئة صيادة انْمَادِية، رأيتها تخرجني من المركز.. خطفتني معها في سباق جنوني عبر المجابات الكبرى، في رحلة لاصطياد أشباح المَهَيَات.. كنت أجاهد وأجد مشقة كبرى في اللحاق بها؛ كنت أريد أن أكلمها.. ولما أمسك أحد كلابها شبح مهاة، توقفت تنظر إليه.. استطعت حينئذ اللحاق بها.. أخذتها بين ساعدي.. أعربت لها عن يأسي، عن انقطاع كل أملي:

ـ فاله حبيبتي، إنها كارثة عظيمة، لعنة وأي لعنة! فاله، تَنْقَلَّ حفيدنا!

ـ تَنْقَلَّ؟ من هو تَنْقَلَّ؟

ـ الغول الملوث، رئيس البرزخ!

ـ كيف عرفت أنه حفيدنا؟ من قال لك؟

ـ أعرف! أعرف أنه حفيدنا.. أعرف أحفادنا جميعا! أعرفهم من تلك النبرة في نظراتهم...

لكنها لم تصغ إلى بقية كلامي: كانت قد انطلقت في إثر أحد سهامها...

اليوم، مع طلوع الشمس كنا في منطقة الآبار.. كانت المواد المشعة الدفينة، قد أحدثت خلال الليل شقوقا جديدة في الجبل.. وكنا ندحرج الصخور الكبيرة لتغذية الطاحونة.. ألقيت نظرة على المنحدر، كانت ذوائب الكثبان تدخن غبارا كالبخار.. الرياح على وشك أن تنطلق.. الشاحنات في حركة من كل الاتجاهات، والبزات البيض ذهابا وإيابا بين المخازن والشحنات الرابضة أمامها.. في هذا الصباح كانت الحفارة في منطقتنا.. تحفر آبارا جديدة.. منعنا الخولي من دحرجة الحجارة التي كانت الحفارة تستخرجها.. وأوجب علينا جلب الصخور من قمة الجبل...

طلبني يوما النصْرانِ وأعطاني مظروفا قائلا: "هذه أجرتك".. دون أن يعطيني شروحا أخرى.. في المساء استطعت أن أذهب إلى النادي لأول مرة.. كنت برفقة انْمَادِ وآخرين من العمال المجبرين.. أخذنا المصعد الذي نزل بنا سبعة طوابق تحت الأرض.. كنا متزاحمين وكنت أشم روائح كريهة، أسعل في محاولة لإبعاد احتمال الإغماء.. انفتح المصعد على بهو من المرايا.. انتهز بعض الوقحين الفرصة، وراح يتأمل هندامه ويسوي تسريحة شعره.. كانوا في الواقع يحدقون في شقائهم! لمحت رأسا غزاه الشيب، لعله رأسي! وانفتح باب الزجاج.. سرنا في الممر طابورا.. كان ثمة شباك، يوزع آليا بطاقات الدخول، كان الواحد منا يضع نقودا في حوصلة الماكينة فتخرج له التذكرة.. دخلنا فرادى.. كل واحد يدخل التذكرة في ثقب طولي في الباب فينفتح، ثم ينصفق خلف الداخل.. عندما دخلت، بقيت مترددا للحظات، لا أدري إلى أين أذهب.. الموسيقى الثقيلة، الصاخبة، الحادة، المتلاحقة، السريعة، عجلت عن الأذنين فاخترقتني، دخلت من جميع مسام جسدي.. الألحان الغليظة

الفاحشة، كانت تجلد قلبي، الذي كان يدق كالجرس.. تحول الهواء إلى عجينة لزجة من أبخرة الكحول، ودخان السجائر وإفرازات الأجسام.. الأكسجين اندحر إلى خلفية بعيدة، أصبح ذكرى.. المصابيح المختلفة الألوان، تضفي وقتا ثالثا، غبشا ملونا يغري بالانفلات.. في ناحية قصية، كانت كوكبة من المصابيح الملونة تضيء وتنطفئ، تلمع على مربع منعزل، مكتظ بأجسام متراقصة.. على اليمين، كان هناك مشرب طويل تصطف زجاجاته على خوان نصف دائري، تتسلق محيطه الخارجي مقاعد كثيرة انتصبت عليها شواخص كقشاعم النسور.. أحسست بأحد يأخذ بيدي:

ـ أنت جديد هنا؟ ما زلت محتشما؟ تعال، هيا، يا ثعلبي الصحراوي، سأجد لك مكانا!

تتبعتها عفويا، دون أن أجد الوقت الكافي لتحديد ملامحها.. شعرها الأسود الطويل الكثيف المتماوج على كتفيها كان يمنعني من التركيز على صفيحة وجهها. أجلستني على كنبة واطئة خلف طاولة زجاجية.. قبل أن تتوجه صوب البار، همست في أذني بكلام لم أفهم منه شيئا، ضاع همسها في صخب الموسيقى الوحشية التي كانت تجلدني.. استطعت أن أمعن النظر في وجهها بعدما رجعت تحمل في يديها كأسين مليئتين.. جلست بكامل ثقلها في الكنبة المقابلة أمامي..

ـ سامحني! هكذا قالت.. لعل وزني زاد منذ وصلت إلى هنا!

ـ أنا لا أجرؤ على سؤالك عن اسمك، لأني لا أعرف لنفسي اسما...

ـ لا عليك، اسمي هنا سُولِيمَا!

المساحيق على وجهها كانت خفيفة.. شفتاها الناعمتان تشكلان سلاحا ماضيا من أسلحة إغواء إبليس، وفوق أنفها الأقنى عينان نجلاوان،

تترقرق فيهما دمعة لا تهبط، تعبران عن حزن دفين؛ كأنهما شاطئان تحطمت عليهما مراكب الأمل.. انحنت إلى الأمام تتناول كأسها.. صار صدرها السخي يوشك أن يتدفق على الطاولة من الفتحة الصدرية لفستانها.. لحظت في معصمها الأيمن سوارا غريبا بداخله سهم يعوم في سائل زئبقي.. كنت منزعجا، شديد التوتر بسبب الموسيقى الجحيمية التي تبعث النكد، وتدفع إلى الإحساس بالقرف والغثيان: كتائب مسلحة بعتاد كثيف من الآلات الكهربائية والألكترونية، تتبارى في الصخب الذي يفجر طبلة الأذن، وينفذ إلى مواطن الإحساس كالمكاوي؛ سيل عرم من المفرقعات المحطمة للسكينة، العديمة التناسق والتناغم، يرافقها صراخ مسعور يكرر ذات النبحة في نشاز أبدي.. كلمات الأغنية في ضمير الأنا، تحكي عناد البشر في ضلالاتهم، موقعة على أوزان قصيرة مبتذلة...

ـ أكره الموسيقى هنا!

قالتها فجأة.. تعجبت من ملاحظتها.. «هل عندنا نفس الذوق؟ أو لعل ذلك نتي...

ـ وأنت؟ يبدو أنك لست مرتاحا منها...

»... جة الغريزة النسوية القديمة التي تجعل من المرأة عقلا فراغا تحت الزينة والثياب، نسخة طبق الأصل من الذكر الذي يدخل عالمها، مرآة بسيطة تعكس أحلامه ورغباته...«

ـ أنت لا تريد أن ترد علي؟ قالتها وأمسكت بيدي، تستعجلني.

ـ كنت منزعجا، شديد التوتر من هذه الموسيقى الجحيمية...

لاحظت أنها تشرب كلامي بنهم شديد، كأنها تجد فيه لذة ليس بعدها لذة.. كانت تلتقطه من فمي قبل أن يتشكل لُغَة، كالعطشان التائه، يجد وشلا من الماء فلا يفرط بقطرة منه! أحسست قشعريرة في ظهري، خيل إلي أن جلدي ينكشط من تلقاء نفسه لينخلع مني ويهرب...

ـ دعنا نخرج من هنا إذا أردت! يمكن أن نذهب إلى قاعة أخرى تكون أكثر هدوءا، قاعة البِيَّارْ مثلا...

لم يكن الجو هادئا في هذه القاعة، كان رجل قصير، دميم، عظيم الهامة، يقف على الطاولة.. عيناه لامعتان كالمجذوب، لحيته الكثة تغطي كامل صدره.. يحشر هامته الحليقة في قلنسوة من القماش الأبيض.. كان يلوح بيديه في الهواء ويخاصم، والناس يتزاحمون حوله.. بعضهم يشد دراعته ويهدده، وآخرون يضحكون من أقواله ورذاذ ريقه المتطاير، وينكتون عليه نكتا جارحة.. قلة منهم يحالون تفهم كلامه، ولا يستطيعون بسبب الضوضاء من حوله.. صرخ أحدهم في الناس:

ـ أسكتوا عنه! دعوه يتكلم!

خف الضجيج.. صار من الممكن تمييز كلامه..

ـ ... دورات ظهور ودورات غياب.. الله سبحانه وتعالى رفع حجته من الأرض لما انتشر فيها الفساد والشر.. لكن يوم ظهور المهدي، إمام هذا الزمان، بات قريبا.. المهدي الذي سيقضي على الشر والطاغوت، ويجعل الأرض وطنا للخير وأهله...

ـ نحن لا نريد مهديك! صرخ واحد منهم.. مضى علينا تحت وطأة الشر من الزمن ما يكفي لقطع أي أمل!

ـ في جميع الأحوال، وبالنسبة لنا، نحن لا يعنينا ما هو آت، لأنه ببساطة لن يدركنا...

ـ ومهديك هذا الذي تتحدث عنه من قال لك إنه سيأتي؟

ـ ومتى؟ متى؟؟

ـ أقسم لكم إنه سيأتي! رايته في المنام وكلمني.. نعم أقسم على ذلك! هو لا يظهر إلا لأنصاره.. قال لي: "هذه الأرض مضى عليها زمن طويل تحت سلطة الفساد والشر.. اليوم حان وقت إقامة العدل، وإحقاق الحق!"..

ـ كفى، كفى! سمعنا أكاذيبك! انزل عن الطاولة، دعنا نلعب!

ـ ومتى سيأتي مهديك، ألم يخبرك بذلك؟

ـ عندما تصبح الأرض رمادا وتنطفئ الشمس!! استفزه آخر.

ـ قل! قل! متى؟

ـ لا أدري... خمسون سنة... أو مائة، لا أدري...

عندئذ رنت في أجواء القاعة ضحكة استهزاء.. التفت الناس إلى مصدر الضحكة.. كانت فتاة منفردة واقفة تسند ظهرها على الحائط.

ـ نعم، أؤكد لكم! نحن في نهاية الدورة الثانية عشرة والأخيرة... الزمن الدائري يوشك أن يبدأ من جديد، فاتحته دورة ظهور الحق وبداية تلك الدورة ظهور المهدي...

قاطعهُ قدوم النصْرانِ في معية مفرزة من رجال الأمن.

ـ أنت! انزل، أسرع! أنزلوه! أفسحوا أنتم الطريق!

ـ أنتم جنود الشر! أنتم المفسدون في الأرض!

كان أبو الهامة يصرخ وهم يحملونه يتخبط بين أيديهم..

ـ تستطيع أن تفكر كما تشاء، وأن تقول ما تشاء.. قالها النصْرانِ للمجذوب.. وأضاف: نحن ديمقراطيون.. لكن يجب أن لا تقدم أبدا على

ما يخل بالأمن العام وإلا سيكون لك العقاب بالمرصاد! اذهبوا به، ألقوه في قاعة الإكراه! دعوه يبيت ضيفا هناك !

وقال موجها كلامه للجمهور قبل أن يخرج:

ـ فكروا فيما شئتم! قولوا كل ما يحلو لكم! أكذبوا، أسرقوا، غشوا، لكن حذار مما يمس الأمن العام!

لما خرج، أرجعوا كرات البِيّارْ على الطاولة وأخذوا في اللعب وبدأت الأحاديث الخافتة.

ـ هل ترغب في شوط؟ قالتها سُولِيمَا متحمسة.

ـ لا، أنا لا أحسن هذه اللعبة!

ـ هيا بنا نجلس!

جلسنا إلى طاولة قرب الفتاة الضحوك المستهزئة.. كان عجبي يزداد من السوار الذي تتزين به سُولِيمَا في معصمها..

ـ هذا قلب جميل! قلتها ولمست القلب بيدي.

ـ هذا ليس قلبا! إنها بوصلتي، ترشدني إلى جهة النفوس الخيرة!

ـ وما علاقة بوصلتك بالخيّرين؟

قربت سوارها من وجهي :

ـ إنه سلاحنا للصيد! أنا من قبيلة صيادين يبحثون في المجرة عن الأرواح الخيرة! نحن نعيش بالكلام مع هذا النوع من الأرواح.. نعيش ونتغذى من هذا النوع من الأحاديث التي لها نفس قيمة الأوكسجين والشراب والأكل بالنسبة لكم.. نحن نشبه تلك الكائنات التائهة بالليل التي تسمونها "مصاصو الدماء".. إنما الدم الذي نحتاجه نحن هو الكلمات

الخارجة من أفواه الخيرين .. منذ آلاف السنين وأنا مسافرة في ثقب أسود من نقطة إلى أخرى في برج التبانة.. الأرواح الخيرة قليلة...

ـ آلاف السنين؟ أنت لم تبلغي الثلاثين!

ـ أنا مثل هذه الصور من الماضي التي ترونها في سمائكم وتسمونها نجوما.. بعض تلك الصور أمضى مليارات السنين قبل أن تلتقطها أبصاركم.. بعضها بدأ رحلته قبل أن تخلق مجرتكم.. سأعطيك مثالا... أنظر إلى هذه الفتاة التي تبعد عنك ثلاثة أمتار.. أنا لا أراها كما هي الآن، إنما أراها كما كانت منذ جزء من مئة من ميكروثانية.. أنا ببساطة وزعت المسافة على السرعة، لكي أحدد الزمن.. أنتم بطبيعتكم لا تدركون فوارق بهذا الحجم، لكن تصور لو كانت العملية على مستوى كوني.. في الثقوب السوداء، السرعة تكبر إلى الحد الذي لا يعود ثمة زمن مهما كانت المسافة المقطوعة طويلة.. آخر روح خيرة لقيتها، منفي من فِيقَا، في خلوته على القُّوبُوصْ.. ولأني كنت أنوي المرور بالأرض في رحلة البحث عن النفوس الخيرة، مكثت زمنا في ليبيا، النقطة رقم 32 في خريطتكم للمريخ.. هناك مركز للدراسات الأرضية مكثت فيه ست سنوات مرّيخية، أي ما يزيد قليلا على اثنتي عشرة سنة من سنيكم، لأدرس حضارات ولغات الأرض وآخذ شكلا مشابها لشكل البشر.. أنا دائما أحضر نفسي قبل أن أدخل في صلة مع حضارة جديدة علي.. لا تستطيع أن تتصور المجهود الذي تطلبه ذلك مني، كنت كأنما خلقت من جديد... أنت أول رجل خير ظفرت به على هذا الكوكب!

ـ والرجل المجذوب ذو الهامة، ألا ترينه رجل خير؟

ـ لا أعرف... من يسمع كلامه يحكم له بالخيرية، لكن إبرة بوصلتي لم تشر إليه... الآن تكلم أنت! قل لي شيئا!

قصصت عليها كل ما أعلمه عن نفسي، منذ يوم فتحت عيني على رأس الجبل لأول مرة، حتى دخولي إلى النادي هذه الليلة.. بدا لي أنها تعرف

عني أكثر مما أعرف عن نفسي.. طلبت منها أن تعيرني بوصلتها القُلب، وقلت لها إنني أحتاجها لترشدني إلى الخيرين القلائل، لأن حياة البشر التي تومض فوق الأرض لحظة وتنطفئ، أضاعت منذ زمن بعيد قدرتها الهادية إلى الصواب.. لكنها شرحت لي أن بوصلتها لها علاقة بطاقتها الذاتية وأنها لا تصلح للبشر.. أعلنوا إغلاق النادي.. قلت لها إنني أرغب في لقائها في مثل هذا الوقت من الغد، لكنها اعتذرت.. أخذت تقدم لي شروحات واعتذارات طويلة، مليئة بالحزن والخيبة..

ـ ... لقد عبرت كثيرا من صحاري المجرة بحثا عنك.. لكن لابد من السفر.. لا أستطيع أن أشرب مرتين من نفس العين.. تصور أنك مسافر في صحراء شاسعة، يحسب عليك الزمن؛ إذا صادفت عينا تتوقف لتشرب، وتستأنف السير.. لن تستطيع الإقامة عند عين واحدة، لأنها ستجف يوما.. أرواح أهل الأرض، شأنها شأن أضوات الصحراء، سريعة الزوال، سريعة الجفاف.. نعم لابد من المغادرة.. هذه الجلسة معك أشاختني مئات السنين الضوئية.. لا تتصور.. حتم علي أن أسافر إلى مكان آخر، حقبة أخرى بحثا ماء جديد، عن دم جديد، عن روح خيرة أخرى... لكن إذا كنت غير مرتاح هنا أستطيع مساعدتك على الخروج ...

ـ كيف؟

ـ سأعطيك إحدى بزاتي.. إذا لبستها لن يستطيعوا رؤيتك، يمكنك الخروج في أي وقت تشاء.. ثيابي العادية ليست هذه التي تراها الآن.. إنها بزات مزودة بأغطية للرأس، وقفازات مصنوعة من قماش خاص يصدر أشعة تحت حمراء.. عندما أكون في ثيابي العادية، وبسرعتي العادية التي تبلغ 299 ألف كيلومتر في الثانية، أظهر بلون ثيابي، لأن الأشعة تحت الحمراء الصادرة عنها تتوزع على موجة قصيرة.. لكن عندما لا أسير بسرعتي العادية، كأن أسير بسرعتكم مثلا، تصبح رؤيتي مستحيلة، لأن الأشعة تحت الحمراء صارت على موجة طويلة...

وافقت على أن أجرب بزتها دون أن أفهم شيئا من تلك الشروح المعقدة.. بل بدون أن أقتنع بصفاتها الخارقة..

ـ ألقاك بعد ساعة في المنامة..

أجبتها بأنها مجنونة، وقلت لها إن رجال الأمن سيعتقلونها.

ـ لا تخف، سألبس بزتي!

خرجنا من النادي من بابين مختلفين..

لم نكد نأخذ مضاجعنا في المنامة، وتنطفئ الأضواء حتى أحسست يدا تلمسني وسمعت صوت سُولِيمَا في أذني.. خلعت بزتها واستلقت بجانبي.. وضعت فمها على فمي، وناشدتني أن أقول شيئا.. صارت أنفاسي تتقطع.. تمتمت في فيها كلمات مذهلة، هذيان لم أعتقد يوما أن لي طاقة عليه..

عند ما أخذ ضوء الصبح ينفذ من مصافي النوافذ، أقلعت بفمها عن فمي.. كنت مرهقا، مستنزف الطاقة، وقد أفرغت من قدرتي على الكلام. نهضت من جانبي وارتدت بزتها وقالت لي بصوت متغير:

ـ إلى اللقاء.. أرجو أن نلتقي في حقبة أخرى وأن أنهل من معينك مرة ثانية.. أحضرت لك البزة، إنها تحت السرير..

لم أرد عليها.. كان مستحيلا علي الكلام أو التفكير في أي شيء، نفد مخزوني من الكلام! كنت أحس في لساني ودماغي فراغا هائلا؛ كانا يابسين، مشققين، كأرضية الأضاة التي جفت!

في ذلك الصباح لم أنهض من السرير.. كانوا قد انتهوا من الفطور ويستعدون للذهاب للعمل.. جاءني انْمَادِ وسألني إن كنت مريضا.. ولما لم أجبه ذهب وأخبر النصْرانِ الذي أحضر طبيبا أفتى بأني لست مريضا، إنما أنا متعب.. وأمر لي بمنشطات وبيوم من الراحة.. عندما لم يبق في المنامة غيري، أخرجت البزة من تحت السرير وقفلت عليها الدولاب خوفا عليها من ابتلاع مصاصات التنظيف.. بقيت طيلة اليوم في السرير.. فاتحا عيني، لا أتحرك ولا أفكر.. وفي المساء لما رجع انْمَادِ من منطقة الآبار، أشقى من سيزيف، كنت ما زلت عاجزا عن الكلام.. ووجد هو في نفسه من الطاقة ما مكنه من الحزن على مصيري بصوت عال..

ـ مسكين! كان فاقد الذاكرة والآن فقد الكلام!

التزمت الصمت أسابيع، لكن ذلك لم يمنع الخولي من إرغامي على دحرجة الصخور إلى منطقة الآبار: ربما يكون سيزيف أبكم أفضل من سيزيف يتكلم...

4
لَبْرَازْ

لم أستطع مواصلة الحياة في المركز.. ومع بداية استعادتي للقدرة على الكلام، كما تتشقق الأرض عن طلائع الأعشاب، قررت أن أشرح لِنْمَادِي مشروع هروبي.. لم أكن أعرف إلى أين.. حدود العالم عندي هي حدود المركز.. قد يكون العالم كله مركزا ولا فائدة من الانتقال من جحيم إلى جحيم.. كنت بحاجة إلى نصائح انْمَادِ.. لكني كنت عاجزا عن الكلام، أو فارغا منه.. حاولت مرة أن أنطق لفظة "بزة" لكي أطلعه على معجزة الاختفاء فلم أستطع.. حاولت أن أجعله يلمس البزة، أن يدركها باللمس إذ لا يمكن رؤيتها:

ـ المس، أنظر! هنا، إنها بين يدي!

لكنه لم يكلف نفسه عناء مد يده نحوي.. كان ينظر إلي باستغراب، صار موقنا أن بي مسا من الجنون.. بعد أيام عدة من النقاش بالإشارات، تتخللها كلمات قليلة حائرة، وافق على أن يعطيني عنوان امرأة من قبيلته، اسمها

فاله، تسكن في اطْوِيلْ، المحطة الثانية على الطريق السريع نحو الجنوب..

من الغد، بقيت في السرير أنتظر خلو المنامة.. بعد أن ذهبوا كلهم للفطور، فتحت الدولاب، انسكبت بسرعة في بزة سُولِيمَا. خطوت خطوات مترددة خارجا من المنامة، أكتم أنفاسي حتى لا يحس بي أحد.. لم أكن واثقا من حكاية الأشعة تحت الحمراء والموجات الطويلة القصيرة! كنت أمر بعيدا عن الموظفين ورجال الأمن.. كنت موقنا أن رجال الأمن سينتبهون إلي دفعة واحدة ويقبضون علي.. ركبت السكة الهوائية دون أن ينتبه إلى أحد.. نزلوا عند غرف التطهير، يلبسون ثياب العمل.. بقيت في القمرة.. كان قد بقي فيها رجل أمن خفير على الركاب.. كان ينكت منخريه بأصابعه العشر.. كنت أتوقع في كل لحظة أن يبطل السحر، ويلتفت إلي مهددا، موبخا، متوعدا: " أنت! لماذا بقيت؟ لماذا تأخرت عن العمال؟ انزل!".. لكنه ظل غير شاعر بوجودي!.. عاد العمال إلى القمرة، وقد اختفت أجسامهم كليا داخل بزاتهم المرئية.. أخذت السكة طريقها للهبوط.. عند محطة الآبار، لحظت ثلاثة عمال ببزاتهم ينزلون.. لم أستطع أن أميز انْمَادِ من بينهم.. تابعت سيري مع السكة إلى منطقة المخازن.. نزلت ومشيت إلى أقرب شاحنة كانت تفرغ حمولتها.. كان السائق وخفيره يملآن ويوقعان أوراق الحمولة الواصلة.. دخلت من باب القمرة، الذي تركوه مفتوحا، واتكأت في مكان ضيق خلف المقاعد.. صعد السائق والخفير بعد إتمام الإجراءات وأخذت الشاحنة طريقها إلى بوابة الخروج..

ـ أنا أكره إِيمْدَلْ! قالها السائق.. العمال هنا معقدون!

أجابه الخفير:

ـ نعم، الناس هنا حمقى! أهل أَرَتَانْ أحب إلي من هؤلاء! هم على الأقل يملكون القدرة على الرقص فوق قبورهم!

عند نقطة الخروج، أخرج السائق بطاقة، ففتحوا له البوابة الحديدية العالية.. خرجنا من السد ووهبنا أنفسنا للخلاء.. لكني ـ في داخلي ـ كنت ما زلت أحدث نفسي بأنهم قد يكتشفونني خلف المقاعد ويغتالونني، وليس من شاهد يشهد.. لكن، كان لزاما علي أن أعترف بأن أشعة سُولِيمَا لم تخني حتى الآن.. مع ذلك بقيت على حذر.. قد تكون الشاحنة أخذت الاتجاه المعاكس لجهة اطْوِيلْ، وإذا كان الاتجاه سليما، فهل سيتوقف السائق عند المحطة؟ وإذا توقف هل سأتمكن من النزول دون أن أثير انتباها؟...

نام الخفير وتعالى غطيطه. فتح السائق المذياع لبعض الوقت.. كانت محطة المشتري تبث إعلانات تتخللها الوصلات الموسيقية.. ثم عهد إلى السائق الآلي بقيادة الشاحنة، وأرخى مقعده إلى الوراء حتى كاد أن يتحول إلى سرير.. ثم صوب شاشة الفيديو لتناسب وضعيته، ووضع شريطا داعرا خليعا... لما استيقظ الخفير، أخذا في حديث، له بداية وليست له نهاية، حول مشاريعهما.. قال الخفير:

ـ أنا جمعت مرتبي أربع سنوات.. لكني لا أعرف كيف أستثمر أموالي.. أحيانا تراودني فكرة القمار.. لكني لا أجرأ عليها لما فيها من مخاطرة...

ـ تستطيع أن تربح كثيرا إذا راهنت على أحد الخيول في سباقات المريخ..

ـ لا! أنت لا تعرف السماسرة هناك!

ـ تستطيع أن تجرب حظك في البورصة...

ـ مستواي لا يرقى إلى مستوى البورصة، إنها تتطلب رأسمالا ضخما.. أعتقد أني سألجأ إلى وضع فلوسي في حساب ادخار.. قيل لي إنها ستزيد ثلاثة أضعاف إذا تركتها خمسة عشر عاما بدون مساس!

ـ وماذا ستصنع بهذه الفلوس الكثيرة إذا استلمتها بعد خمس عشرة سنة؟

ـ أتزوج، وأبتني دارة جميلة، فيها ملجأ واق من الإشعاع النووي!

ـ ما أسعدك! أنا لست محظوظا مثلك.. لا أملك شيئا.. ورغم ذلك، خطيبتي مصرة على أن نتزوج في ظرف خمس سنوات، عندما تنهي دورتها حول العالم بالدراجة! حاولت أن أقنعها بالعدول عن فكرة الزواج خلال خمس سنوات، لكني فشلت.. إنها عنيدة.. أكرر عليها دائما أن الزواج غير ممكن، إلا إذا أصبحنا أغنياء، لكنها لا تقتنع.. في واقع الحال ليست المشكلة مشكلة فلوس.. أسمع! أليس الزواج يعني إنجاب الأطفال؟

ـ نعم، بطبيعة الحال.. لكي ننجب أطفالا، ونستمتع في آخر أيامنا بمداعبة أحفادنا في ليالي الشتاء، إزاء الموقد...

ـ مشكلتي أنا أني لا أريد الإنجاب، وخطيبتي ترفض أن تفهم ذلك! لماذا الإنجاب في هذا العالم الرهيب؟ في هذا البيدر من النفايات السامة؟ لماذا ننجب الأطفال لنحكم عليهم بالشقاء والموت، مستضعفين في الأرض بين منبوذي النظام الشمسي، ليس لهم ملاذ؟

ـ أنت متشائم! يمكن لأولادنا أو أولادهم أن يجدوا حلولا لتلك المعضلات ويهتدوا إلى مخرج من المآزق التي وضعناهم فيها... لكن عندما أفكر يظهر لي أن الحق هو ما تقول... مسؤوليتنا جسيمة!...

بعيد العصر توقفت الشاحنة في ساحة واسعة مكتظة بالشاحنات أمام بناية كبيرة على واجهتها لوحة مضيئة كتب عليها: "اطْوِيلْ.. شاي، هامبورڤر 24 ساعة".. نزل فريق الشاحنة، فتح السائق غطاء المحرك.. كانت الساحة تئز بأصوات الماكينات.. بعضهم ينظف محرك سيارته، وبعضهم يزودها، وبعضهم يفتش لها عن موقف مناسب.. كان بعضهم يجيء لتوه ويتوقف وبعضهم يستعد للمغادرة.. دفعت الباب ببطء.. كان غير مغلق.. انزلقت وسقطت على الإسفلت.. التفت السائق ناحيتي لحظة، ثم رجع ببصره إلى ما كان فيه.. غادرت الشاحنة دون أن ألتفت خلفي... لقد أكد لي انْمَادِ أن دار فاله تقع خلف الأخدود الكبير بالجانب الأيمن من الطريق السريع، عند الخروج من محطة اطْوِيلْ.. خط لي مع العنوان تصميما أستدل به... كنت أفتش عن الورقة في جيب البزة.. كان ذلك صعبا لأن يدي كانت مصلوبة في القفاز.. رأيت أمامي لوحة كتبت عليها كلمة "اطْوِيلْ" يقطعها خط أحْمر مائل.. نظرت إلى اليمين.. رأيت الأخدود غير بعيد.. هبطت في غوره ثم صعدت التل من ورائه، كانت أنفاسي تتلاحق سريعة.. مباشرة أسفل التل، رأيت دارا صغيرة يسيجها حائط من الشجر المرصوف.. هبطت إليها مسرعا، يساعدني المنحدر، دون أن أتوقف لالتقاط أنفاسي... سمعت نباح الكلاب داخل الحوش.. لم أهتد إلى المدخل وبعد دورة شبه كاملة، عثرت على باب خشبي في الجانب الآخر.. ضغطت على الجرس مرة، مرتين، ثلاثا، أنادي: "فاله حَلِّ الدار!" ولا أحد يأتي..

كان النباح يتعالى من الداخل بلا انقطاع، كما في الصيد.. تذكرت بزتي، شجعني ذلك على الدخول من غير إذن.. كان الحائط الواسع يشبه غابة برية لا سلطة عليها للتنظيم.. الأشجار كثيفة تحاصر الرؤية.. صرت أرى من خلال الأشجار بعض جوانب الدار وأسمع النباح الذي يتعالى ويقترب.. مررت بمحاذاة الدار.. في الساحة خلف الدار، رأيت

شابة يحيط بها قطيع من الكلاب الشرسة، وبجانبها نماذج مفترسة هي نسخة طبق الأصل من السائق والخفير.. لكن شيئا ما أرعب الكلاب، فاجتمعوا خلف المرأة كأنما يحتمون بها من خطر مجهول.. انبطحوا على الأرض.. النباح الغاضب المتحدي تحول إلى عواء شاك خائف! انتقل الرعب من الكلاب إلى الفتاة.. تسمرت في مكانها، تلتفت في جميع الاتجاهات.. لما اقتربت منها، اشتد فزع الكلاب، صارت أحناكها ترتجف وتصطك أسنانها..

ـ أنت هي فاله؟

تلفتت في كل الاتجاهات، كادت تصعق من الفزع..

ـ يا إلهي! ما هذا؟

تذكرت فجأة أشعة سُولِيمَا.. نزعت بسرعة القلنسوة.. كانت الفتاة توليني ظهرها، تفتش بنظراتها في الجانب الآخر..

ـ أنت فاله؟

صاحت صيحة فظيعة، ثم التفتت إلى ناحيتي وصاحت صيحة أفظع.. تراجعت خطوات وسقطت على قفاها بين الكلاب.. بقيت هامدة كالصريع.. ندمت.. كان يجب خلع البزة قبل الدخول.. خلعت البزة تماما وحملت الفتاة بين ساعدي.. جلست مسافة من الكلاب، وأنا أسندها على ركبتي.. كنت ألطمها على خدودها لطما خفيفا وأخاطبها :

ـ انتبهي! استيقظي! أنا آسف، روعتك عن غير قصد، سامحيني، كنت قد نسيت أشعة سُولِيمَا!...

فتحت عينيها.. صاحت وقفزت بعيدا عني..

ـ من أنت؟ لماذا جئت هنا؟ رأسك نفس الرأس الذي رأيته قبل لحظات معلقا في الهواء بلا جسد!

كلّمتها بإسهاب عن بزة سُولِيمَا وأشعتها السحرية، لكنها لم تصدق.. كان لزاما علي أن أبرهن لها بالمشاهدة.. لبست البزة وخلعتها مرة بعد مرة، قبل أن تهدأ ويخف روعها.. لكن الكلاب مازالت مذعورة تصطك أسنانها..

ـ مسكينة هذه الدواب، لم أر الكلاب مذعورة كما رأيتها اليوم.. لم أكن أعتقد أنها تفزع إلى هذه الدرجة.. وأنا التي كنت أعتمد عليها لإبعاد اللصوص! لكنك أنت لست كائنا طبيعيا، أنت زلزال، أو ظاهرة كونية!

كلمتها عن انْمَادِ.. قالت إنها لا تتذكره..

ـ قال لي إنكما كنتما معا في مدينة الرياح، قبل الحكم عليه.. وأنك أصبحت تسكنين هنا، بعدما أرسلوه إلى المركز.. حدثني أنه كتب إليك، يخبرك باعتقاله...

ـ لا أذكره.. سامحني الآن.. أريدك أن تدخل في البيت حتى أهدئ الكلاب..

وجدت صعوبة في اجتياز عتبة الدار، بسبب الطيور الكثيرة الداخلة الخارجة.. كان داخل الدار أكثر فوضى من الحوش.. كانت أشبه بمشتل مختبري للعلوم النباتية: نباتات من كل نوع، من كل فصل ومن كل مناخ، تتعانق أغصانها؛ ورود عطرة، صارخة الألوان؛ أحجار وأتربة من كل أنواع الأراضي؛ طيور غريبة رائعة؛ دويبات لا حصر لها، بينها الثعلب الصحراوي واليربوع، يمثلان فصلا من فصول صراعهما القديم.. فتشت عن مكان للجلوس.. كان ثمة مقعد أو اثنان ووسائد مبعثرة.. شققت طريقا وعرا بين النباتات وجلست على وسادة.. مع اقتراب الليل

اشتدت زقزقة الطيور وحركاتها الدائرية التي لا تتوقف، أحيانا كثيرة تصطدم بالسقف.. تتسابق لأخذ المجاثم المفضلة على مَدَرِ السقف..

لما جاءت ووجدتني جالسا على الوسادة، غير مرتاح، أحاول أن لا أخدش نبتة من نباتاتها أو أدهس حشرة من حشراتها الكثيرة المتراقصة عند قدمي! أشارت لي برأسها وقالت:

ـ تعال نصعد!

صعدنا مع سلم دائري من الخشب شديد الضيق، لم أنتبه لوجوده.. أدخلتني غرفة مربعة حيطانها مغلفة بالقماش، فيها وسائد كثيرة مبعثرة وأجهزة هُولُوفِزْيُون وفيديو، وبيدر من الكتب.. جلست على وسادة.. وانخرطت في نوبة متواصلة من العطاس.. قدمت لي شرابا منعشا عطرا..

ـ سامحيني في هذه الزيارة على غير موعد...

وبما أنها لم تجب، تابعت حديثي وأنا أحس بشيء من الضيق:

ـ أنا وحيد في العالم، هل تعرفين ذلك؟

ـ أليس لك أهل أو أصحاب؟

ـ أبدا! ولا أحد!

ـ وسُولِيمَا هذه التي هربتك؟

ـ تلك؟ لا يمكن أن تتصوري! أنا لا أعرف لماذا أشير إليها بالمؤنث... هي ليست امرأة... ليست حتى بشرا... إنها غولة أو غول، مصاصة دماء تتغذى بالكلام، جاءت تصطاد البشر، مسافرة عبر الثقوب السوداء، من نقطة إلى أخرى في برج التبانة... أخذت شكلها البشري على المريخ قبل أن تهبط على الأرض..

ـ وأين أهلك؟ ماذا حل بهم؟

ـ أهلي! ليس لي أهل... أنا خلقت هكذا! كما ترينني! فتحت عيني على الوجود منذ أشهر فقط! كان ذلك على قمة اظْهَرْ، قرب إيمْدَلْ...

لم تتمكن من حل لغزي، رغم محاولاتها المتكررة.. قبلت بي كما أنا، من باب الأمر الواقع.. تنازلت عن محاولتها لاستكناهي، أدمجت غرابة وجودي في اللامعقول.. ثم نسيتها مع الزمن.. حتى الكلاب أصبحت مألوفا عندها، صرت أداعبها وأمسدها...

كانت حزينة دائما.. تبكي أحيانا بدون سبب مفهوم.. تعلقت بي شيئا فشيئا.. كنت كما لو أني طير من طيورها أو دويبة من حشراتها.. كان يبدو لي أحيانا أنها تعتبرني شاهدا على عالم مضى، أثرا واهيا من زمن انصرم.. عندما تلامسني تفعل ذلك بحذر وحنان، كأنني آنية خزفية ملكية عثر عليها باحث مهووس.. كانت تغيب أسابيع طويلة.. أسكن البيت وحدي مع النباتات والحيوانات.. وفي الليل أقرأ مخطوطاتها الشعرية التي تتغزل بالطبيعة.. عندما أقرأ شعرها يخيل إلي أنها حاضرة، تكلمني.. لا حدود لشغفها بالطبيعة.. لهذا غادرت مدينة الرياح، وسكنت في هذه الضاحية المعزولة.. بغضها لمدينة الرياح جعلني أكرهها بالعدوى.. أصبحت أعرف هذه المدينة بشكل دقيق لكثرة ما وصفتها لي.. أتصورها مجللة بالغبار المشبع بالإشعاعات النووية من حاويات النفايات التي تتقيأها البواخر على الميناء، غبار يعطي لنهارات المدينة لونا أشهب، لون الفاقة والكآبة والاضمحلال.. ليس للمدينة مخطط عمراني؛ الناس يَقْزُرُونَ أرضها على قدر حالهم، يبنون أكواخا أو قصورا؛ يتنافسون في سوء الذوق.. أكوام القمامات المحيطة بالمدينة تحفظها من ابتلاع الرمال.. وطرقاتها المغبرة تسدها القمامات والحيوانات السائبة: المعز، الحمير، البقر، الإبل، الكلاب، والقطط.. الحيوانات تموت

مسمومة من النفايات التي تعيش عليها أو بسبب صدمة سيارة مجنونة.. تبقى الجيف مكانها، تنتفخ ثم تنفجر وتتحلل.. روائحها النتنة تحول المدينة إلى مستودع تصب فيه مختلف مجاري القاذورات.. كانت دائما تقارن مدينة الرياح بجرح سائل بالصديد..

سكان مدينة الرياح لا يشعرون بالسموم السارية في أجسامهم وأرواحهم المخدرة، ويطفئون مرارة أحوالهم بأن حكومتهم تحصل على ما تحتاج من عملات صعبة.. لكن العملات الصعبة المحصلة من تحويل البلاد إلى مستودع للنفايات النووية والمواد السامة، لم تكن توزع بعدالة، بل كانت مقتصرة على تَنْقَلَّ وحاشيته.. الشقاء والظلم تقرأهما على غضون الوجوه.. الهوة الفاصلة بين أغنياء المدينة وفقرائها تزداد بسرعة فظيعة.. الشمال الغربي في محاذاة الكورنيش، الحي السكني الراقي، المتكون حول قصر تَنْقَلَّ، توجد فيه السفارات والفنادق وقصور الحاشية.. هذا الحي الراقي نقطة في جنب ثور اسمه مدينة الرياح، مئات الآلاف من علب الصفيح الصدئة المتراكمة بعضها فوق بعض، يزداد عددها كل يوم.. وقذاراتها كل يوم.. وعاهاتها كل يوم.. قُربُ الميناء الذي تقيء عليه البواخر حمولة السموم، يرفع درجة التلوث..

البشر والدواب والماكنات تتحرك في جميع الاتجاهات بحثا عن قوت اليوم.. من حين لآخر يحدث توقف بسب موت مفاجئ أو حادث سير مروع أو سيارة وقعت في وحل طريق رملي، فسدت الطريق.. وربما سدها جمهور تائه، تكون صدفة، على إثر خناقة أو سرقة أو اختطاف.. ثم يتفرق الجمع وتستأنف الطرقات سباقها الجهنمي.. مع الليل يهدأ الضجيج .. ويتكرم البحر على المدينة الكئيبة بنفحة منه.. يصفو الهواء قليلا ويطيب.. تضيء الطرقات بمصابيح علب الصفيح المرقعة

وبعض السيارات الفاخرة التي تلمع لها عيون المومسات، كالقطط على الأرصفة..

تجارة المخدرات، والبوتاسيوم المزدوج باليود، تزدهر بالليل.. المخدرات تنسيهم أنهم خلقوا أصلا، وأحيانا تنسيهم تعب يومهم وتكفيهم مؤونة التفكير في غدهم.. أما البوتاسيوم فيساعد الذين يمسكون بالحياة من ذنبها ليوم أو شهر أو عام، قبل أن تخلفهم وراءها وتمضي، فيموتون ضحية للإشعاعات النووية والتسمم.. مسؤولو "المؤسسة الوطنية للوقاية الصحية" يحتكرون المواد المقاومة للإشعاع والتسمم ويبيعونها بأسعار مضاعفة في السوق السوداء، ولا يقبلون إلا العملة الصعبة.. المهربون هم الزبائن الكبار.. في جميع ساعات النهار ترى طوابير الناس أمام مكاتب المؤسسة، يطلبون حصتهم وفي نهاية كل دوام، يطلع عليهم المسؤولون بالتناوب يقولون لهم: "نفد المخزون هنا! روحوا إلى محل آخر!".. الأكثرية التي لم تجد حصتها من مواد الوقاية يتحتم عليها أن تشتريها في السوق السوداء.. حدثتني مرات عديدة عن إحباطاتها المتكررة بعد سهرتها، حتى طلوع الصباح على المساحات الشاسعة الشهباء من علب الصفيح: "ما أعظم الفرق بين بهاء السماء في الليل وهذا المشهد الكئيب! مدينة تذكرني في صباحاتها بالمومس المستيقظة من نومة كابوسية بعد ليلة من التهتك، اختلطت مساحيقها وعرقها ودهانها، وارتخى ما كان مشدودا من تجاعيد وجهها، وشكل كل ذلك لوحة يمتزج فيها القبح والدمامة والغش والخديعة والنجاسة والعهر والفسوق.. أمام هذا المنظر لا أستطيع أن أمنع نفسي من تساؤل مهلك: ما الحكمة من وراء وجود البشر؟"..

في إحدى الليالي، عندما كانت نائمة إلى جنبي، أيقظني نشيجها.. ألححت عليها في السؤال: "ما الذي يبكيك؟"، ولأول مرة حدثتني عن طفلها الذي أبقوه عنوة عنها في مدينة الرياح، لأنه لم يكمل المدرسة الإجبارية. "حاولت اختطافه مرتين، لكن الرقابة كانت تهتدي إلى مخبئي في كل مرة وينتزعونه مني! آخر مرة وضعوني على إثرها في السجن ولم يفرجوا عني إلا بعد أشهر.. أنا مستعدة لكل شيء من أجل إنقاذ طفلي!" نطقت هذه الجملة الأخيرة بنبرة مأساوية، كأنها تنبئ بكارثة وشيكة..

5
بَيْقِ الْمُخَالَفْ

كنا أحيانا نشاهد الهُولُوفِزْيُون قبل النوم ونحن في السرير.. في تلك الليلة، كانت قادمة لتوها من أحد أسفارها الغامضة.. كان الهُولُوفِزْيُون يعرض نشرة الأخبار.. افتُتحت النشرة بصورة كبيرة مبتسمة للرئيس تَنْقَلَّ وهو يستقبل الرئيس المدير العام للشركة الدولية لمعالجة النفايات السامة والمواد الخطيرة.. لم تستطع فاله أن تتمالك نفسها: "أنظر! إنه يضحك لذلك الخنزير! من المؤكد أنه يحاول الحصول منه على تمويل مركز جديد!" كان صوت خلفي يعلق على المقابلة: "...تربطهم بدولتنا علاقات مثمرة.. يجب أن نذكر هنا بأن بعثة من خبراء الشركة الدولية لمعالجة النفايات السامة والمواد الخطيرة زارت منطقة الحوض الشرقي مؤخرا، ووعدت بإنشاء مراكز جديدة للتخزين ومصنعا لتكييف النفايات.." رجعت صورة المقدم إلى الشاشة.. رغم سماكة طبقة طلاء البودرة، فإنها لم تستطع إخفاء علامات الإرهاق على وجهه الغليظ الملامح.. كان يقرأ نشرته من على شريط خفي، بصوت محايد آلي، ذي

نبرة واحدة، سوءا كان ينقل أخبار الكوارث أو الأفراح.. "وردني للتو هذا الخبر العاجل: أعلنت جبهة إنقاذ المجابات الكبرى مسؤوليتها عن تفجير شاحنة محملة بالنفايات السامة والمواد الخطيرة، كانت متجهة إلى أحد مراكز التخزين في الحوض الشرقي، وقد لقي رجلان مصرعهما في هذه العملية التي تقدر الخسائر المادية المترتبة عنها بعدة ملايين من الأوقية.. من المعروف أن جبهة إنقاذ المجابات الكبرى تكتتب عناصرها أساسا في أوساط انْمَادِ، تلك القبيلة القديمة التي كانت تعيش من صيد المها في المجابات الكبرى. ويستخدم الإرهابيون طرق الصيد نفسها التي كان يمارسها انْمَادِ القدماء، لكن بدل المها المنقرضة أصبحوا يدربون كلابهم السلوقية على اصطياد سائقي الشاحنات والخفراء.. وتنفذ هذه العصابة عملياتها أساسا على الطريق السريع إلى مراكز التخزين في المجابات الكبرى، خاصة الجزء الرابط بين تَامَكْرَرْتْ وأَوَانَ.. أخيرا إليكم هذا الخبر العلمي : أعلنت فرقة من مركز البحوث الجيولوجية أن غاز ثاني أكسيد الكربون، النائم في طبقة الصخور الرسوبية، بدأ يتبخر تحت ضغط الحرارة المتزايدة لسطع الأرض، ويؤكد الخبراء أن استمرار هذه الظاهرة سيؤدي إلى غليان المحيطات، وتحول الكرة الأرضية إلى تنور الشيطان..."..

أيقظتني فاله في السحر.. كانت قد أشعلت الضوء، وهي ترتعد، مبللة بالعرق.. كانت قطرات صغيرة عالقة بشكل فوضوي على جبينها وعارضيها، كحبات الندى.. قالت لي إنها وقعت تحت وطأة كابوس مرعب: "كنت في نوم متقطع.. جاءني ذلك المارد المسخ.. عنقه طويلة رقيقة، ووجهه نحيف، مقعر، ناتئ العظام؛ عيناه حمراوان، غائرتان في بئرين عميقتين؛ جبهته ضيقة، مغضنة كأم التلافيف؛ منخراه كفوهتي النافوخ؛ فمه كالجرف، شفتاه كطبيبي الشاة الحلوب؛ ذقنه قصير، مدبب كمؤخرة السندان؛ لحيته كعثنون التيس؛ أذناه طائرتان كقرني مهاة؛ شعره

أسود مختلط.. أسنانه كفكي الكلب؛ ذيله ذيل قرد.. له ذروة في ظهره كما في صدره؛ يرتدي شبارق أسمالا.. أوقد نارا فظيعة قرب السرير، نصب عليها مرجلا ضخما وأمر تَنْقَلَّ أن يسعر النار تحته.. كانت عنده مذراة طويلة ينخسه بها ويتوعده.. فار المرجل.. نزع المارد ثيابي وألقى بها بعيدا، ثم قبض علي من وسطي وألقى بي في المرجل الفائر.. صحت، وإذا بي مستيقظة، مرهقة، خائرة القوى.. لبثت وقتا طويلا مستلقية على قفاي فوق شراشف السرير المبللة.. وكلما رجعت إلى مخيلتي صورة المسخ، اقشعر بدني من أخمص قدمي إلى ذؤابة رأسي.. مستحيل أن أنام بقية الليلة!"..

حاولت تهدئتها والتخفيف عنها.. لكنها بقيت شاكية مرعوبة:

ـ نحن تحدق بنا الكوارث الرهيبة، ولا نبذل الجهد اللازم لتفاديها.. أخاف أن ترتفع الحرارة بما يحول الأرض إلى جحيم.. أخاف أن يتجدد طرد آدم من الجنة بطرد أحفاده من الأرض، ليبدئوا تيها أبديا.. لن يبقى لدينا من الأرض سوى صورة تلسكوبية، كالصورة التي لدينا من الزهرة... أرضنا اليوم عالم في سكرات الموت، لم تعد الحياة قادرة على الصمود أمام ظلم وجهالة البشر.. لن تستمر الحياة مع التلوث الكيميائي والنووي، مع التصحر والتضخم السكاني والنقص في المياه والأغذية.. البشر مسؤولون عن الكوارث الأرضية.. دمروا المحيط الطبيعي بطريقة عمياء وغير معقلنة، من أجل تحقيق أرباح زائفة وقصيرة الأمد، ومن أجل إرضاء نزوات سخيفة، وبما يضر بمصالح سكان الأرض على المدى الطويل.. تكوّن غطاء من التلوث وغاز الكربون وبخار الماء حول الأرض، وكثف جوها بحيث أن الأشعة الحارة تحت الحمراء ما عادت قادرة على مغادرة الأرض.. إذا استمر هذا الاتجاه فسترتفع درجة الحرارة على الأرض، سيصبح كوكبنا مرجل الشيطان! المسؤولون الحقيقيون عن هذا الوضع هاجروا عن الأرض وتركونا في جحيمهم الذي أوقدوه...

كنت متفهما لأسباب تشاؤمها وإحباطها، لكني حاولت أن أمنحها بصيص أمل:

ـ أنت على حق! الحياة على الأرض صارت مستحيلة.. لكن ثمة أماكن في النظام الشمسي وأماكن أخرى ملائمة للحياة.. أنا وأنت سنغادر هذه الأرض العجوز الشمطاء، لنعيش تحت سماوات أرحم.. نتجول في صحارى قمرية ونتلهى على سواحل المريخ القديمة أو في غابات سماوية منسية.. أو نهيم على وجوهنا في مدن مجرية بعيدة، بعيدة... صحيح أن ثمة أحزمة أمن حول الأرض، وتأشيرات مغادرة الأرض التي يصعب الحصول عليها...

ـ أنت تعرف تماما استحالة إنجاز هذه المشاريع الخيالية... نحن نعيش في محيط مشحون بالتلوثات الكيماوية والنووية، وأملنا في الحياة يكاد يكون معدوما.. والمشاريع محرمة علينا!

انتقل إلي إحباطها بالعدوى، فغامرت بشجاعة لست راغبا في امتحانها:

ـ لابد أن نفعل شيئا! مستحيل أن نبقى نتفرج على الشر ولا نحرك ساكنا!

ـ هذا بالضبط ماكنت على وشك أن أقوله لك.. كلابي أصبحت جاهزة.. دربتها على اصطياد الشاحنات ورجالها.. نستطيع أن ننفذ علمية ضدهم الآن!

داهمنا الصباح الغادر ونحن مازلنا نناقش تفاصيل العملية!

بعد أيام وجدنا أنفسنا في منطقة الشَّقَّاتْ ومعنا قطيع الكلاب.. ترصدنا طريدتنا خمسة كيلومترات قبل نقطة الانقضاض.. كانت شاحنة ضخمة متوقفة في إحدى نقاط الاستراحة.. كان سائقها وخفيرها يطعمان

غداءهما.. عند نقطة الانقضاض، قسمنا الكلاب نصفين وانبطحنا ومعنا الكلاب المحفزة السريعة الشمرية على جانبي الطريق، خلف الألسنة الرملية الممتدة بارتفاع قليل في محاذاة الطريق.. استلقيت على الرمل ومن ورائي الكلاب منبطحة، عيونها معلقة بيدي؛ أبسط إشارة وتنطلق كالسهام..

عندما وصلتنا الشاحنة أو كادت، دوت في الصحراء صيحات كثيرة اجتمعت كلها في صيحة واحدة: "أَلَحْقُوا! أَلَحْقُوا! وَشْ! وَشْ!" دوى النباح الشرس وانتفضنا من الأرض، كأنما نحن طالعون من جوفها، في إثر الكلاب الهاجمة على الشاحنة.. رحنا نركض في إثرها، والشاحنة تزيد سرعتها والكلاب تتسلقها من كل جانب، بعضها تشبث بالعجلات وصار يدور بدورانها، غارزا مخالبه وأنيابه في المطاط، وبعضها قفز قفزة بطول الشاحنة، فصار على مقدمتها.. سمعنا صوت طلقات نارية في خضم عواء الكلاب التي دهستها الشاحنة قبل أن تضطر إلى التوقف أخيرا.. صوبت صخرة بكامل القوة المكتنزة في ساعدي إلى الواجهة الزجاجية الأمامية فأحدثت فيها ثغرة كبيرة كفوهة الغار، مكنت بعض الكلاب من الاندفاع في الكابينة.. أطلقوا النار بعشوائية، فأصابوني.. لكن المعركة الحاسمة وقعت داخل الكابينة التي امتلأت على السائق والخفير بالكلاب الشرسة المسعورة.. الكلاب الأولى التي دخلت في الكابينة، التحمت بالوجوه.. أما الكلاب الأخيرة فقد أمعنت في تمزيق البزات وبقر البطون.. راحت الكلاب تسحب الجثتين الممزقتين من الواجهة الزجاجية المحطمة.. كانت جثة الخفير ما تزال ممسكة ببندقية آلية عندما أخرجتها الكلاب.. تدحرجت ساقطة لترتطم بالإسفلت الملطخ بالدماء.. انطلقت رصاصة طائشة، فتعاود الكلاب الجثة توسعها نهشا وتمزيقا... أمطرت السماء وابلا من نار.. سحبتني فاله للدخول تحت الشاحنة للاحتماء بها..

أبادت نسور حديدية الكلاب جميعا.. أوثقونا وحملونا إلى المروحيات.. نقلوني إلى ثكنة آغْرَيْجِيتْ...

اليوم الأول، جاءني محققون يثيرون الرعب، عضلاتهم منتفخة.. سألوني عن معضلات وألغاز لا أملك لها جوابا: "من أنت؟"، "من أين أنت قادم؟"،"ماهي دوافعك؟"... ثم زارني شخصان يلبسان البدلة والنظارات الطبية.. كلاهما يحمل حقيبة منتفخة، تكاد تتقيأ.. قدما لي نفسيهما: أحدهما محام، والثاني مبعوث المنظمة الدولية لحماية السجناء.. أعطياني شكليات طويلة وعريضة لتعبئتها، بادئة بمعضلات من نوع: "الاسم"، " اللقب"، "اسم الأب"، "اسم الأم"...

أمضيت أشهرا في ثكنة آغْرَيْجِيتْ.. مبعوث منظمة حماية السجناء كان يؤكد لي دائما أن المحاكمة مستحيلة مالم تعبأ الأوراق.. لم أكن أعرف شيئا عن مصير فاله إلى أن سلمني مندوب منظمة حماية السجناء رسالة منها سببت لي صدمة كبيرة: أخبرتني أنها في مدينة الرياح وأنها نجحت في استمالة "عواطف تَنْقَلَّ، الذي أخذ في الأيام الأخيرة يكلمني في الزواج!".. قدرة النساء على التكيف مع الظروف الطارئة شيء يثير العجب! أكدت لي أن الزواج مع تَنْقَلَّ لا يمثل بالنسبة لها طموحا، لكنها ستوافق عليه بسبب ابنها الذي تنوي أن تسخر ظروفها الجديدة لتربيته.. اعترفت أنها تحس بشيء من الندم، وأنها لا تعرف إن كان حبها لابنها يبرر علاقتها بغول ملوث، وقالت إن جهالة الإنسان وظلمه هما وحدهما اللذان يبرران جنوحه للشر...

جاءني المحامي مرة لإعلامي بأن القاضي قرر محاكمتي، وأنه لم يعد ينتظر تعبئة الشكليات.. نصحني بالبوح بهويتي، وإلا سوف يكون الحكم قاسيا.. هو إذا غير مقتنع بما كررته عليه شهورا، من أني لا أعرف من أنا؟ ثم وصلتني رسالة قصيرة من فاله، تعلمني بزفافها بتَنْفَلَّ الذي سيحتفل به بداية الشتاء المقبل.. مثلت أمام المحكمة.. لم أكن أهتم بما سيحكمون.. اتهموني بكل الجرائم مجتمعة.. زعموا أني: "مأجور لصالح قوى خارجية"، " جاسوس مدرب تدريبا خارقا للعادة"، "إرهابي غرر بفتاة بريئة أفرط في استغلال عواطفها الخيرة"... الخ. صدر الحكم فلم يفاجئني: "...نظرا لكل هذا، فقد حكم عليك بالموت عطشا.. يطبق هذا الحكم على رأس جبل الغَلاَّوِيَّة"..

وجدتني على رأس جبل الغَلاَّوِيَّة أموت عطشا، تحيط بي دائرتان من الجنود، يبدلون كل ساعة.. لم يكن يشغل بالي سوى زفاف فاله و تَنْفَلَّ بعد موتي.. طوال سبعة أيام سيظل سكان جمهورية المنكب البرزخي محتفلين بزواج رئيسهم.. ستأتي برقيات ورسائل التهنئة من كل العالم.. لكن الطقس لن يكون احتفاليا: العاصفة الرملية الموسمية ستنطلق بداية الشتاء، لمدة شهرين بدون انقطاع، تملأ مناخير الناس وأعينهم، وصماخ آذانهم بالغبار الأشهب كريه الرائحة.. لكن ذلك لن يمنع البرزخيين من الرقص والغناء بحناجرهم المزكومة بالغبار والإشعاعات النووية.. سيأكلون وجبات معجونة بالحصى الذي يطن بين الأضراس . أسبوع قبل الزفاف، ستسلم فاله إلى الصانعات اللواتي يحضرن العروس ويزينها في التقاليد البرزخية : ضفارات ماشطات، محنيات، مقيمات الشاي، حكوائيات مشاءات بالنميمة وناشرات للفضائح.. سوف يشحن العروس بعبارات الدعارة وأوصافها لكي ينسفن منها كل بقية حياء، تحسبا لليلة الزفاف..

طوال كل تلك المدة، سيخيل إلى فاله أنها جنازة يهيئونها للدفن.. لكن الصانعات، اللواتي يشتغلن بها من كل ناحية، سيكن مرحات، خليعات؛ بعضهن يصخب بأصوات عالية، وأخريات يقهقهن كالقرود. بعضهن مشتغل بتصفيف وفتل وفك ضفائر العروس، يسرحن هنا ويضفرن هنا، ويدهن هناك. وأخريات يأخذن اليدين والقدمين، يضعن عليها الزخارف ذات الأشكال البديعة، ينحتنها بدقة بالشفرة والغراء اللاصق؛ بعضهن يضعن قطع الثلج على القدمين واليدين، لكي لا تعرق ويسقط الغراء وتختلط أشكال الزخرفة.. يعملن عجينة من الحناء الخضراء الناعمة السحق، اللماعة، قبل إلصاقها على اليدين والقدمين.. ثم يغلفنها بأغلفة بلاستيكية لمدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة، ستبدو خلالها كالمومياوات المصرية القديمة، أو الجسور والعمارات التاريخية التي كان اكرستو جافاشيف يلف في الورق...

في زوايا الغرفة، سترسل المباخر ألسنة دخانية رقيقة تسافر إلى السقف، كأنها أرواح العفاريت التي ظلت حبيسة في القماقم، حتى قُيضت لها يد حررتها من سجن سليمان.. وستكون ثمة وصائف يرفعن أذيال العروس، يدخلن تحتها المباخر لتتشبع الثياب والجسد معا برائحة البخور المثيرة.. سيكون هواء الغرفة خانقا، كأنه عجينة تخدر الحواس وتحررها من الارتباط العضوي بالأوكسجين، وتولد إحساسا غليظا بحيوانية الحياة. بعضهن سيشتغلن على ملحفة الزفاف، بنيقتان من قماش أسود رقيق شفاف.. أسبوع قبل الزفاف، لابد أن تبقى الملحفة موضع عناية ترش بخليط من العطور، تُبَخَّرُ، يُذَرُّ عليها مسحوق اللبان وتبرم، تكمش، تكرمش وتحفظ في آنية بلاستيكية لكيلا يذهب أريجها..

سيكون شعر فاله مضفورا ومحلى بالخرز والخوص الأبيض والعقيق... عندما تُبعث مومياوات القدمين واليدين، ينسُل عجين الحناء بواسطة عيدان مقلمة، تحركها أصابع الصانعات بمهارة.. وتكشط أشرطة اللصوق المنحوتة، فتظهر الزخارف الحنائية الرائعة، الحمراء الذهبية.. واحتفاء بهذا الجمال، سيلبسونها خواتم الذهب وخلاخل الفضة، التي سيكون لها رنين ذو تأثير خاص في مخدع النوم، هناك في بئر الرغبة التي ليس لها قرار.. يخرجن ملحفة الزفاف يشبكن كمها للبس بالخلة البيض، بحيث يسمح للصدر بالبروز.. وتتدلى على الصدر القلائد والجدائل والضفائر المحلاة، المرسلة في كل الاتجاهات من فوق الأقراط الذهبية...

تصورتها وهي تلقي نظرة لامبالية على الجريدة الموضوعة على خوان فطورها السريري، فتطالعها صورة رأسي العاري في الشمس، وبعدها صورة جثتي المغبرة يحيط بها النسور.. تصورتها تقرأ الكمات تحت الصورة: "إلى النهاية رفض البوح باسمه" أو "ماذا قد تكون آخر فكرة في رأسه؟".. وستكون ثمة صورة أخرى لوجهي الملغي، تظهر علامات النشوة الروحية والانخطاف والوله؛ قد تكون تحتها عبارات من نوع: " كل شيء انتهى!"، " أخذت العدالة مجراها!" أو "لم يبق إلا الصمت!" وقد لا ترى شيئا من كل ذلك، قد لا تراني إلا بعد أن أصبح هيكلا عظميا مفرغا من لحمه؛ أو لا ترى من ذلك الهيكل سوى جمجمة غسقت حفيرتا محجريها ووقبت، معروضة في أحد المتاحف...

الجوع والعطش طردا مشهد زفاف فاله، الذي حل محله رعب فظيع وكره مقيت للجنس البشري.. الألم الذي لم يعرف مثله، يزحف رويدا رويدا.. إنه يبتلع الجسد كما تبتلع الرمال غرقاها.. الشفاه والفم

والمريء تيبست وتكسرت.. المعدة والأمعاء تتلوى، كأن قوة هائلة تعتصرها لاستخراج ما تبقى فيها من ندى.. نار شرسة تحرق الأحشاء.. ويمتد الحريق ليلتهم الوجه واليدين والصدر... عندما أحس بالنسور تهبط على جسدي بمخالبها المسننة، وأحس بمناقيرها الفولاذية تنهش بدني، ينتفض جسمي انتفاضة شديدة يائسة.. تترك النسور قبضاتها وتتحلق حولي غير بعيد، ترف بأجنحتها، تختال، تنتظر وعدا مؤكدا حان وقته.. آلام مبرحة تسري في عظامي، في لحمي وفي عروقي، تظل تتزايد في نوبات مفاجئة، ثم تمر بمرحلة جزر قليلا، ليرجع المد أقوى مما كان.. أحس كأن قلنسوة من حديد عضت رأسي وراحت تضيق عليه، تضغط بصورة متزايدة.. تجاوزت عظام الرأس لتعض على الدماغ. انفجرت في كياني حمى نافض، أعقبها إحساس بالانهيار الكلي، فطلائع الغيبوبة... هدأت الآلام، ارتخت الأعصاب وتمددت الرجلان، هدأت العروق اللاهثة، فلم تعد عطشى ولا جائعة.. أسمع طنينا متواصلا في أذني.. أحس بموجات صوتية طويلة.. أحس كأني وسط جمهور كبير.. أكاد أميز من الضوضاء جوقة من الأصوات الصديقة: يبدو أن الصحراء امتلأت بالسكان لمشاهدة موتي... أنا في عالم جديد تهاجمني خلاله ذكريات تافهة، غريبة، من الحياة التي تغادرني...

أخذ النص مكانه في خانة الحفظ في المكتبة العمومية بمعهد أركيولوجيا الفكر البشري تحت عنوان: " سكرة موت ڤارا 425 –1479هـ؟"..